
روايات مصرية للجيب
د. أحمد خالد توفيق
44
داء
الأسد
سافاري

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ــ كما يقول الغلاف ــ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقو الأعضاء ..

هناك ــ كما قلنا ــ من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

★ ★ ★

ست راجل !

كطلبة ، عرفنا منها كل ما نعرفه عن مرض الجذام ، وكان المرضى المشوهون المنبوذون يعتبرونها أمًّا لهم ؛ إذ تجاهد لعلاجهم وانتزاع حقوقهم ، وتعرفهم واحدًا واحدًا ، وتمنحهم المال والعلاج والمواد التموينية عبر الجمعية التى كونتها ، وتمنحهم وجهًا بشوشًا رحيمًا يعدهم بالشفاء . وكما قال لها مريض مسن أمامنا : « طبيب الوحدة فى قريتى يطالب بتعليق أجراس فى أعناقنا، بينما أنت أعطيتنا كل شىء .. أنت (ست راجل) ! » يوم الثلاثاء من كل أسبوع كان هو (عيد الجذام) عند الدكتورة (وفاء رمضان) أستاذ الأمراض الجلدية بطب طنطا . أرجو أن يليق هذا الكتيب بأن يهدى لها .

الفصل التالى لم يكتبه د . علاء عبد العظيم :

الحر واللزوجة والعرق ...

سوف يقضى علىَّ هذا البلد .. بالواقع أفريقيا كلها سوف تقضى علىَّ .

برغم أننى مخضرم هنا فقد بلغت نهاية القدرة على التحمل ، ويبدو أننا نحمل فى ذواتنا كمية محددة سلفًا من الصبر والثبات ... هذه الكمية انتهت ..

أريد العودة لوطنى .. أريد إنهاء تعاقدى هنا ، لكن المشكلة هى أننى لن أحصل على هذا الراتب فى وطنى .. أخاف البدايات الجديدة دومًا ، وسيكون علىَّ بالفعل أن أبدأ بداية جديدة ..

لأسباب كهذه لم أسع للطلاق ولم أطلبه ..

كانت تلمح إلى أنها راغبة فى الطلاق .. منذ أن قررت أن تعود وتتركنى .. يبدو أن مخزونها انتهى بسرعة هى الأخرى .. لا أعرف .

بعد ستة أشهر بدأت خطاباتها وبريدها الإلكترونى يوحون بملل شديد وحاجة إلى الخلاص ، وأنا لا أعتقد أن هناك آخر .. مستحيل أن يكون هناك آخر . بهذا الملل والروح المغلقة والكآبة .. لا يمكن أن تنجذب لرجل آخر أو ينجذب لها رجل آخر ..

تجاهلت هذه الخطابات .. وتظاهرت بأننى لا ألاحظ ..

نحن بالفعل فى حالة طلاق بلا أوراق رسمية . من قال العكس ؟.. هى هناك وأنا هنا ولم تعد هناك أية ذكريات عاطفية مشتركة .. يمكن لكل واحد منا أن يعيش قرنًا دون أن يرى الآخر ..

لماذا يتغير أى شىء ؟

أكره البدايات الجديدة .. أن أرجع أعوامًا للخلف لأعود مفلسًا ــ بعد الطلاق ــ وبلا أسرة ، ولربما أبحث عن زوجة كذلك ..

مستحيل !

إذن ليبق كل شىء كما هو .. لن أتكلم وهى على الأرجح لن تتكلم ..

هذه من الأسباب المهمة التى تجعلنى أحجم عن إنهاء التعاقد هنا . الكاميرون مهرب لا بأس به على كل حال ..

الحر .. الحر و الرطوبة ..

أفريقيا تصر على قتل الرجل الأبيض بطريقتها الخاصة ..

اتجهت إلى الثلاجة فأخرجت دورقًا يحوى شراب الليمون مع قطع الثلج ، وانتقيت كوبًا نظيفًا وعدت إلى الأريكة .. صببت لنفسى بعض السائل الرائق مصفر اللون ورشفته فى تلذذ .. الرائحة .. يا للرائحة .. إنها تنسينى رائحة الرطوبة بعض الوقت ..

رحت أتصفح الجرائد القادمة من الوطن ..

لا توجد أخبار سيئة وهذا خبر طيب فى حد ذاته .. لكن كل شىء كما هو .. المباريات .. الأفلام .. المشاكل السياسية ..

لكنهم سعداء .. لا يعرفون كم هــم ســعداء محظوظــون .. يعيشون هناك يمارسون حياتهم المتحضرة ، بينما أنــا هنــا ... قبائل الكوكويو .. الملاريا .. الإيدز ..

يجب أن يحمد المرء ربه على أنه فى الأميرون . على الأقـل هى متحضرة بالنسبة لبقاع أكثر وباءً .. ماذا عن الكونغــو ؟.. ماذا عن المشاكل القبلية فى كل مكان فى القارة ؟..

جلست وأمسكت بورقة وكتبت عليها بخط كبير :

ــ « أنجاوانديرى .. وأنا انتهيت .. لم أعد أتحمل .. »

★ ★ ★

فى العاشرة مساء جاء (علاء عبد العظيم) ..

طبيب مصرى متزوج من طبيبة كندية ويعمل فى هذه الوحدة منذ فترة طويلة . شاب شجاع صريح هو وأعتقد أننى أميل لــه فعلاً . يقيم هو وزوجته فى وحدة منفصلة أقرب لفــيلا صــغيرة ضمن حدود الوحدة الأم .. مكان ضيق جدًا لكنهما صمما علــى أن يجعلاه عشهما ، وقد زرعا أمامه حديقة صغيرة وثبتا ستائر زاهية على النوافذ ..

كائنان يثيران الشفقة ولا يدركان كم هما تعسان .. الإنــسان مسكين تعس حتى لو كان لا يدرك ذلك .. حتى لو كان يــضحك ملء شدقيه ..

كان يحمل فى يديه كعكة صغيرة مغطاة بالشيكولاتة ، وقال لى وهو يضحك فى خجل :

ــ « برنادت تقول إن عيد ميلادك بعد يومين .. سمعت هــذا من صديقتها فى العيادة .. بما أننا ــ ربما ــ لن نكون هنا فقــد أعددت لك هذه الكعكة .. »

عيد ميلاد ؟.. إذن أنا ولدت ؟.. حسبتنى موجودًا منــذ بــدء الخليقة فى هذا العالم .. ربما أنا الإنسان الأول كذلك ..

لكن لابد أن يظهر المرء اللطف .. فيمــا مضى كان بوسعى أن أكون لطيفًا وأضــحك ، لكنى اليــوم أجــد صعوبة شديدة فى أن أقول :

ــ « هذا لطيف منك .. لطيف فعلاً ... لم لا تــدخل لتتنــاول كوبًا من العصير معى ؟.. »

تراجع ضاحكًا بتلك الطريقة الشرقية الجذابة وقال :

ـ « لا شكرًا .. لابد من موعد سابق .. لقد تعلمت عاداتكم .. على كل حال (برنادت) تنتظرنى للعشاء .... »

ثم سألنى فى شىء من القلق :

ـ « أنت كنت تذهب هناك بانتظام منذ فترة .. هــل الأمــور جيدة ؟.. »

قلت له وأنا أحمل الكعكة شاكرًا :

ـ « ليس المشهد جميلاً لكن الأمور جيدة .. فقــط يجــب أن تتمتع بأعصاب قوية .. هناك حل عبقرى يجب أن تعرفه وهــذا الحل اسمه التعود .. سوف تعتاد الأمور ولسوف تنسى مشاعرك مع الوقت .. »

ـ « وهل التعود إرادى ؟.. »

ـ « لا .. لكنه يأتى إذا تأهبت له .. إنــه يــشبه النــوم .. لا تدرى متى جاء لكنك تصحو مع ضوء الشمس متسائلاً كيــف غبت عن وعيك .... »

حك لحيته فى شىء من القلق وقال :

ـ « هل ترى أن نتعاطى عقار الريفامبسين ؟.. »

ابتسمت .. نفس الأسئلة ونفس القلق ..

قلت له :

ـ « لا أرى ما يمنع .. من الأفضل أن تكون مخطئًا علــى أن تكون آسفًا .... »

فكر قليلاً ثم هز رأسه محييًا وكرر من جديد :

ـ « كل عام وأنت بخير .... »

وقفت أراقبه وهو يبتعد ....

شاب ظريف لكنه ينتمى بشكل ما لهذا البلد المزعج : الكاميرون .. ليس كاميرونيًا لكنه يحمل رائحة المكان وينتمى له . وأنــا قــد بلغت روحى الحلقوم ...

أين أنت يا (لارا) ؟

- 1 -

الحر واللزوجة والعرق ...

لكنى اعتدت هذه الأمور ، ثم إن القاهرة نفسها ليست جنة لو كنت تفهم قصدى .

عدت للكاميرون ولسافارى مع برنادت .. رحلة طالت ومغامرة فى كندا مع أبويها .. لم تكن أيامًا سيئة بالتأكيد . هذا ديدن الإنسان على كل حال .. بعد عبور المستنقع يكتشف أنه كان رطبًا جميلاً ، ويندهش لماذا كان يتذمر وهو فيه ..

لكننى أشعر براحة واستقرار نفسى عندما أعود لـ (أنجاوانديرى) وأرى بناية سافارى الشبيهة بحرف L وأرى أصدقائى وأعدائى ، الذين كتب على أن أمضى معهم العقد الأخير من عمرى ...

كنت أمر مع برنادت بفترة ممتازة من الصفاء .. تعرف هذه الفترات عندما يحمل كل واحد للآخر أعظم تقدير وامتنان .. بشكل ما كانت تعتقد أننى أنقذت أباها برغم أن علاقتنا ساءت هناك حتى اقتربت من الطلاق .. وهى تعرف جيدًا أنها تملك نصف الفضل

فى تشخيص مرض أبيها ، لكنها قررت أن تنسى وأن تنسب الفضل كله لى أنا .. إذن أنا طبيب رائع .. أنا مخبر عظيم .. أنا بطل .. ليكن .. لن أتذمر من هذا طبعًا ...

فى البداية كان بيتنا الصغير – أو (الفيلا) إن راق لك أن تسميها كذلك – فى أسوأ حال مزمن بسبب الإهمال والغبار . هكذا احتجنا إلى أسبوع حتى يعود كل شىء لما كان عليه .. تخلصنا من أطنان من الغبار ونسيج العناكب .. وجدت هى ثعبانًا صغيرًا طفلاً فى الحديقة ، ولم أحب فكرة قتله لمجرد أنه بشع المنظر ، خاصة أن العمال قالوا لى إنه غير سام ، لذا وضعته فى كيس وألقيت به فى الدغل البعيد ...

قمنا بتغيير الستائر على النوافذ ، ونقدت البستانى بعض المال ليجلب لى شتلات أزهار جديدة بدلاً من تلك التى هلكت .. كما ابتعت (أنتريه) جميلاً من سوق الأشياء المستعملة (يسمونه سوق البراغيث) .. وقمت بطلاء الخشب ليصير جديدًا ..

فى النهاية بدأت أشعر بالرضا لأن بيتى كما أحببته فعلاً .. صغير ضيق لكننى اعتدته ، وبدأنا من جديد نستعيد علاقاتنا بأعضاء الوحدة ..

كلهم بخير .. لم يمت أحد على ما يبدو . هناك بعض الأطباء التشيكيين جاءوا مؤخرًا ، وهم ثقيلو الظل لكنى على كل حال تعلمت أنك تخطئ كثيرًا فى هذه الأحكام ..

سألنى (أبراهام ليفى) عما إذا كانت العطلة راقت لى ..

يصر على استخدام اللهجة الفلسطينية التى سرقها من العرب كالعادة .. فلم أرد .. هذه المواقف تروق له على كل حال لأنها تظهره ظريفًا ودودًا بينما أبدو أنا حيوانًا فظًا .. ليكن .. كففت منذ فترة عن الاهتمام لرأى هؤلاء القوم ..

على كل حال كان المدير (بارتلييه) بانتظارى فى مكتبه كالعادة .. رحب بى وتمنى أن تكون عطلتى ممتعة ، وطبعًا لم أقل له شيئًا عن قاتل يبحث عن حروف (العين) فى مصر ، وأب مجنون لزوجتى .. هذه أمور عادية لا تجلب الانتباه .

كان باركر هناك وهو منهمك فى تدوين بعض البيانات على الكمبيوتر . قلت لك إنهم أناس عمليون جدًا لا يضيعون وقتهم .. السكرتيرة مشغولة بعمل آخر لذا يطبع هو هذه البيانات ، ويمكن القول بشكل ما إن المدير ونائبه يشتركان فى ذات المكتب ..

قال لى (بارتلييه) وهو يفرغ من العشاء :

ـ « هل تعرف (دجوم) ؟... »

لم أكن أعرف (دجوم) ..

ـ « إنها فى الجنوب .. أقرب نقطة ممكنة للجابون .. هى وسط قرى البانتو المعروفة .. هناك كذلك بعض القبائل المسلمة التى نزحت من تشاد .... »

كل هذا جميل لكن ما دورى فى هذا كله ؟

قال (باركر) وهو يتابع الشاشة ودون أن ينظر لى :

ـ « فى هذه المنطقة مستعمرة جذام . عمرها مائة عام على الأقل .. المدير بلجيكى يدعى (أدلبير دونو) .. وهناك بعض الرهبان وبعض أطباء بلا حدود .... »

مستعمرة جذام ؟.. هذا أجمل ، لكنى لم أعرف دورى بعد ..

قال المدير :

ـ « أهم مستعمرة جذام فى أفريقيا وربما العالم كله هى مستشفى ALERT أليرت فى أثيوبيا .. لكن المركز الرئيس يهتم بهذه كذلك باعتبارها قريبة منا جدًا .. طلب المركز الرئيس أن نرسل مجموعة من أطبائنا إلى هناك .. يريد أن نتواجد ويكون

لنا دور .. هناك أكثر من ورقة علمية يمكننا تنفيذها كمـا أننـا نريد إحصائياتنا الخاصة .... »

هذا سهل طبعًا ما دمت لن ترفع ردفيك عن هـذا المقعـد .. إصدار التعليمات أسهل شىء فى العالم ، ما دمت لن تمضى أيامًا مع المجذومين ..

أردف باركر :

ــ « قمنا بذات العمل منذ عام كامل .. واليوم نكرر الـشىء ذاته .. لقد قمنا بجمع فريق ممتاز من أطبـاء الجلـد وأطبـاء الأعصاب والعيون .. سوف تكون د . (برنادت) هناك لتنـاظر الأطفال .. عليك أن تتأهب للذهاب هناك . قم بتـسليم أى عمـل بدأته كى يستكمله الباقون .... »

سألته بصوت مبحوح وأنا أكور قبضتى :

ــ « هل لابد لبرنادت أن تذهب ؟.. »

ــ « بالطبع .. عندما تكون هنا فهى تخصنا ولا تخصك .. إنها ملكك فى دارك فقط ، أما هنا فأنت لا تضع لها جدول العمل .. »

ــ « وهل سنبيت هناك ؟.. »

قال (مونتانييه) باسمًا :

ــ « للأسف لا .. المكان لا يسمح بالمبيت .. سوف تذهب كل يوم وتعود مع اقتراب المساء .... »

ثم أخرج ورقة تحوى الأمر الرسمى وناولها لى ..

لابد أنهم سيخطرون برنادت الآن ..

بالطبع لا أحب هذه المهمة ، لكنى أعرف بالضبط أيـن تبـدأ حدود عملى وأين تنتهى .. عندما يطلبون منى أن أتسلق جبـل كليمنجارو فإن من حقى أن أرفض وأخرج لهم لسانى ، أما هنـا فأنا طبيب .. لا يوجد شىء آخر أفعله ولابد من شخص يقبل .. لو أن كل طبيب يخشى أن يعالج مرضى الدرن والإيدز والجـذام والكوليرا والطاعون ، فأين كنا سنكون ؟

هذا عمل سيئ .. عمل أكرهه .. لكنى أكره التنصل منه أكثـر .. سوف أصير خليطًا عبقريًا من المدلل والكسول والجبان والجاهل ..

قلت وأنا أتجه للباب :

ــ « قلت لى ما اسم تلك البلدة ؟.. »

ــ « (دجوم) .. اسمها (دجوم) .. »

ليكن .. سأفترض ان اسمها (نجوم) وقد تم تشويهه على لسان رجل أصابه الزكام .. هذا يجعلنى لن أنساه ..

يجب أن أعيد قراءة داء الجذام فى كتبى .. لم أتعامل معه كثيرًا بعد تخرجى ...

- 2 -

كانت الساعة العاشرة صباحًا عندما هبطت الطائرة الهليوكوبتر فى المستعمرة ...

مستعمرة (سان سيرفيه) .. أحيانًا تنطق (سانت سيرفاتيوس) .. اسم قديس له رنين بلجيكى واضح ، فلا أحتاج لذكاء كبير كى أعرف أنه واحد ممن كانوا يعنون بمرضى الجذام . نراها من أعلى فتبدو لى كأحد أديرة الصحراء التى نراها فى مصر .. بينما محرك الطائرة يبعثر الغبار هنا وهناك ..

أرى بعض البنايات قديمة الطابع .. وبالطبع هناك سور عملاق .. هذا سجن كبير مخيف .. فقط يختلف عن السجن فى أنك قد تصاب بالعدوى فيه ..

نحن بالضبط على حدود (الجابون) أى أننا جنوب الكاميرون الذى يطلق عليه اسم (سود Sud) . أنظر لبرنادت وتنظر لى .. ثم أجيل عينى فى الطائرة ... هناك صديقى العربى (بسام) وهناك ذلك الأحمق (أبراهام ليفى) وهناك طبيب أمراض جلدية تركى الجنسية .. وهناك مترجمنا الدائم (بودرجا) .. كان هناك طاقم تمريض سبقنا إلى هنا ..

وسط الغبار هبطت الطائرة لتستقر على الأرض لكن معـدتى ظلت تحلق هناك فى السماء ..

وإذ هبطت على الأرض وساعدت برنادت على النزول ، كانت هيئة الاستقبال فى انتظارنا ..

المدير البلجيكى ... بالتأكيد هو المدير بسبب هالـة السـلطة المشعة منه .. يقف وسط رجلين يلبسان معطفين أبيضين .. أحد الرجلين نحيل رفيع عصبى كثير الحركة .. تشكيل قسمات وجهه وسرعته فى الحركة وعنقه الطويل .. كل هذه الأشياء جعلته أقرب إلى فأر آدمى عملاق حتى توقعت أن له ذيلاً يخفيه فى سرواله ..

الرجل الثانى كان من الطراز العضلى القصير المضغوط .. طراز (مارادونا) لو كنت تفهم ما أعنيه ، وقد قلت لنفـسى إن هـذا الرجل لو لم يكن أمريكيًا جنوبيًا فأنا أبله ..

ـ « أنا المدير د. (دونو) ... أقدم لك د. (جيرهارد) وهو نرويجى الجنسية .. ود. (مارسلان) .. بلجيكى !..... »

طبعاً كان البلجيكى هو الرجل قصير القامة المضغوط .. هـذا يبعث لك رسالة مختصرة أنك أبله .. ليكن .. ليـست هـذه أول مرة على كل حال ..

ثم استدار ليقدم لنا امرأة صارمة تلبس كالممرضـات ولهـا خصلة شعر بيضاء فى مقدم رأسها توحى بالأرستقراطية ، وقـد توحى كذلك بأنها مصابة بزوائد خلقية فى القولون .. قـال لنـا إنها تدعى مس (إيما) وهى مشرفة تمريض هنا ..

الرجل ذو البدلة السوداء والعوينات من دون إطار ، والـذى تحيط بعنقه ياقة بيضاء هو القس البريطانى (ويليام دوجلاس) .. له ابتسامة مشجعة وديعة ..

فهمت كذلك أن (جيرهـارد) و(مارسـلان) كليهمـا مـن (أطباء بلا حدود) .. واضح أنهما هنا منذ فترة طويلة ..

* * *

جلسنا فى قاعة واسعة مكيفة ، بينما جلس المدير فى الـصدارة ، وظهرت ساقية سوداء تحمل صينية عليها بعض أكواب العـصير .. كان (دونو) يسأل كلاً منا عن تخصصه ومنذ متـى هـو فـى الكاميرون وجنسيته ..

عندما دنت منى الساقية وهى تحمل الكئوس مـددت يـدى لأحدها .. هنا لاحظت أنها تمسك الصينية براحة يدها .. لـسبب بسيط هو أن ثلاثة من أصابع يدها غير موجودة .. رفعت عينى

فرأيت الملامح المألوفة ، وكانت هناك سحابة بيضاء على العين اليمنى ..

شعرت بجزع وتقزز وهززت رأسى بمعنى أننى لا أريد ، ثـم ضربت ساق (برنادت) من تحت المنضدة كى تحجم بدورها ..

لست جاهلاً .. أعرف أن هذه الحالات التى بدأت تتشوه لم تعد معدية ، وعلى الأرجح هى تتلقى علاجًا كاملاً ، لكن هناك تحـت جلد كل عالم رجل بدائى يتطير ويستجيب للمنطق غير العلمـى . ذات مرة مر ثعبان على ساقى وعرفت أنه غيـر سـام ، لكنـى ظللت أشعر بأننى أريد أن أقطعها بالفأس ، وشعرت أن جلده قد نقل السموم لجسدى .. هل يوجد منطق علمى لذلك ؟.. بالطبع لا .. لكنها الغريزة ... ربما عقيدة التابوو المتوارية فينا منـذ فجـر التاريخ ....

لما دارت الساقية على المائدة كلها اتجهت إلى البـاب الـذى تغطيه ستارة سميكة وتوارت ، هنا قـال د. (دونو) موجهًا لى الكلام :

ـ « (رئيسة) امرأة مخلصة نشطة وغيـر معديـة علـى الإطلاق .. كل من يعملون هنا هم من مرضانا السابقين ، ونحن

نؤهلهم .. لو خرجوا للمجتمع فلن يجـدوا عمـلاً لأن النـاس يفكرون بطريقتك يا دكتور ...... أ ...... »

قال (بودرجا) وهو يشرب العصير فى نهم :

ـ « عبد العظيم .. اسمه عبد العظيم .. »

التقط المدير خيط الكلام من جديد فقال :

ـ « أرجو أن تتذكر هذا .. الحالات المخيفة لا خطـر منهـا على الإطلاق ، بينما الخطر الحقيقى هو المريض الـذى يبـدو مثلى ومثلك .. مجرد بقعة شاحبة اللون فى مكان ما من جلده ، وهو لا يكف عن إفراز البكتريا المخيفة من أنفه طيلة الوقت .. ثق أنك فحصت هذا المريض مائة مرة من قبل ولم تعرف .. »

قلت فى شىء من الحدة :

ـ « أعرف هذا كله فأنا لم أتخرج فى مدرسـة القـانون ... لكن الأمر أقوى منى .. »

قال فى برود :

ـ « إذن فلتكن أقوى منه .... »

ثم رفع كأس العصير كأنه يشرب فى صحتنا وقال :

ـ « نرحب دومًا بأية أيد عاملة إضافية هنا .. لن تكون هنا استثناءات بالطبع .. سوف تقومون بالعمل كأى واحد آخر ، لكنكم فى نفس الوقت أحرار فى عمل أية دراسات علمية تحتاجون لها .. سوف تكتشفون مع الوقت أن هذه المستعمرة أقرب إلى مدرسة منها إلى مستشفى .. أنتم ستمارسون عملاً شبيهًا بعمل طبيب المدرسة .. عندما يمرض أحد نزلائنا سوف يطلب رأيكم ، لكنكم كذلك ستعرفون نظام العلاج الذى نطبقه هنا .. ستعرفون نظام التأهيل والتعليم .. لا تنسوا أن لدينا طوائف من كل الأعمار .... »

ثم أشار إلى مس (إيما) وقال :

ـ « سوف تريكم مس (إيما) كل شىء هنا ، وقد سمحت للدكتور (جيرهارد) بأن يضع الجدول الخاص بكم .. سوف تكون أيامًا مثمرة جميلة يا سادة .... »

وشرب ما فى الكأس ...

ثم ابتسم وقال وهو يسعل :

ـ « لا أعتقد أن هذا كافٍ لابتلاع كل الأتربة التى دخلت حلوقكم لكنه يصلح نوعًا .. الغداء فى الثانية عشرة فى نفس القاعة .. كان بودى أن أجد لكم أماكن للإقامة لكن هذا متعذر حاليًا لهذا سوف تأتى الطائرةِ كل يوم لترجع طاقم الأطباء ، لكن الممرضات سيبقين لأن لهن مكانًا هنا .... »

ثم نظر فى ساعته وقال :

ـ « يمكنكم النهوض الآن ..... »

هكذا بدأ كل شىء ، ومن دون أن نجد فرصة أخرى لالتقاط الأنفاس .. لكنى برغم كل شىء شعرت براحة .. لا أحب قضاء الليل هنا بالتأكيد .. هكذا سوف تبقى نهاية اليوم كشمس تنتظرنى واعدة بالأمل وتجعلك تتحمل ...

فلنبدأ إذن ...

الفصل التالى لم يكتبه د . علاء عبد العظيم :

فرغت من إعداد اللازانيا .. إن رائحتها رائعة ، وقد بدأ لعابى يسيل بالفعل ... هؤلاء الإيطاليون عباقرة .. أن تجمع وجبة بين العجين واللحم المفروم والبصل والجبن لهو شىء يفوق الخيال ..

أنا أجيد إعداد اللازانيا فعلاً .. أعرف هذا وأدركه وأفخر به ..

أخرجت الصينية من الفرن ، وتأملتها .. تبدو رائعة .. سوف أعيدها للفرن كى تحتفظ بحرارتها هذه ..

أريد بعض موسيقا (موتسارت) لتملأ جو المسكن .. مع هذه الأبعاد الضيقة لن أحتاج إلى الكثير من (موتسارت) ليملأ المكان ... هذا حل اقتصادى ..

الآن أقوم بإعداد المائدة .. أربعة أفراد ...

الشرشف الجديد .. بعض الأزهار التى سرقتها من الحديقة .. كئوس .. أطباق ... شمعة ؟.. لا .. ليس لقاءً رومانسيًا بالتأكيد ..

كل شىء جاهز وقد بدأت أشعر بالتوتر الذى أشعر به كلما أوشكت على استقبال ضيوف .. شعور بلحظة تدنو كأنها لحظة الإعدام ..

أشعل سيجارًا وأجلس متظاهرًا بالاسترخاء ..

من عادة قومى أنهم ينعمون بوقتهم حيث كانوا ..

عندما جاءت الساعة التاسعة دق جرس الباب ..

دقيقون جدًا بالفعل ..

هرعت أفتح الباب فقابلونى بالهتاف وأغنية عيد الميلاد ...

(لارا) معهم .. (لارا) قد أنهت نوبتجيتها كما وعدت وجاءت تحتفل بعيد ميلادى . معها (شرودر) طبيب التخدير الألمانى وصديقى العزيز ، و(كاتى) الأيرلندية طبيبة الأشعة ..

هنا فى (سافارى) يبدو لى الأمر كأننى فى البيت .. أصدقائى يحتفلون بعيد ميلادى ، لكن من الغريب أننا من جنسيات مختلفة تمامًا نتفاهم بخليط من الإنجليزية والفرنسية ..

كانوا يحملون الهدايا .. لو أنصفوا لجلبوا أزهارًا من التى تحمل إلى القبور .. لست فى مزاج حسن ولا أنوى البتة أن أتذكر أننى ولدت ...

عندما يصير الاحتفال بعيد الميلاد نوعًا من الاحتفال بخطوة أخرى نحو القبر .. أعتقد أن الكائنات الوحيدة المسموح لها بهذا الاحتفال

هم الأطفال .. كل عيد ميلاد يقترب منهم من قمة الجبل .. هذا نصر جديد .. بعد هذا يصير كل عيد ميلاد خطوة أخرى نحو القاع ...

جلسوا على الأريكة .. المكان ضيق لكننى حاولت أن أجعلــه رحبًا ..

قدمت لهم الشراب .. وتساءلت (لارا) عن هــذه الرائحــة الطيبة فقلت لها :

ــ « لازانيا .... »

بدا عليها أنها لم تسمع الاسم من قبل ، فقالت (كاتى) :

ــ « وجبة إيطالية .. سوف تضيف لك سعرات عديــدة هــذه الليلة .. »

قالت لارا فى حيرة :

ــ « هل لك جذور إيطالية ؟.. حسبت أنك .... »

ــ « البتة .. لكنى أتقمص أحدهم عندما أمارس الطهى .... »

لارا رشيقة جميلة فارعة القامة .. تذكرك بنبات رقيق لا اسم له ، لكنه سهل الكسر جدًا .. قوتها وروحها يكمنان فى عينيهــا

الشفافتين الواسعتين .. واااااااااااااااااااااسعتين .. يــسهل أن تقع فيهما فلا تعود أبدًا ..

لارا تحبنى وأنا أحبها لكن هــذا لن يــؤدى لشىء ولن يغير شيئًا ... الظفر بها يعنى حربًا ضروسًا .. وهى ترفض أن أتخلى عن زوجتى .. وأنا أرفــض أن أصير مفلسًا لو طلبت زوجتــى الطلاق ، لهذا نحن معلقان بين السماء والأرض .. بــين الجنــة والجحيم ...

يقول (شرودر) وهو يعبث فى لحيته البنية :

ــ « هــل عرفت بآخــر المستجدات ؟... المديــر يطلــب أن نعــود .... »

قلت فى غيظ :

ــ « لقد أمضيت فترة طويلة هناك .. هذا ممل ...... »

قال وهو يبتسم :

ــ « سأحتاج لفترة طويلة كى أعرف السر الذى يجعلهم يحتاجون إلى طبيب تخدير هناك ، لكن من الواضح أننا سننفذ .. المــدير يتعرض لضغط قوى من المركز الرئيس .... »

ـ « المشكلة أننى لا أعرف سببًا لأهمية تواجدنا .. على قدر علمى نحن لم نضف شيئًا ولم نكتشف شيئًا .. أحيانًا أحسب أن قانون هذه الوحدة هو : لماذا لا تتعب إذا كان ذلك بوسعك ؟.. أنا أرى أننى مفيد هنا أكثر من هناك بمراحل .... »

قالت لارا باسمة :

ـ « وذلك المدير البلجيكى فى المستعمرة ... .. »

ـ « لم أحبه قط ... رأيى أنه وغد متحذلق .... »

واتجهت إلى الركن الصغير الذى يمثل مطبخًا ، والذى يفصله عن مجلسهم (كاونتر) من الرخام تضع عليه المأكولات .. نهضت (لارا) لتساعدنى بدلاً من أن أدور حول الكاونتر . ناولتها الكعكة فشهقت لما رأتها وصاحت :

ـ « من الذى فكر فى كعكة ميلاد ؟.. »

قلت فى سأم :

ـ « ليست طازجة لكنى وضعتها فى الثلاجة .. هذه صنعتها لى طبيبة الأطفال الكندية .. زوجة الطبيب المصرى .. ذلك الملتحى ... »

ـ « علاء عبد العظيم .. »

قالها (شرودر) وهو يشعل لفافة تبغ وأردف :

ـ « إنهما زوجان لطيفان .. مجاملة لا بأس بها هى .... »

ـ « والطبيبة طاهية بارعة كما يبدو .... »

قالت (كاتى) وهى تتخذ مقعدها إلى المائدة :

ـ « يقولون إنها تملك مالاً يكفيها لشراء نصف كندا .. لكنها اختارت الحياة هنا .. يبدو أنها من عجينة (ألبرت شفايتزر) .. »

ـ « كل إنسان مجنون بفكرة واحدة يهيم على وجهه كى ينفذها .. هناك أناس لا يسعدهم المال وأناس لا يسعدهم سوى المال .. وهناك من يموتون من أجل الحب ، ومن يموتون دون أن يسمعوا عنه .. »

وفتحت الفرن وأخرجت صينية اللازانيا .. مدت لارا يدها لتأخذها منى فشهقت ووثبت للخلف ..

ـ « ما هذا ؟.. إنها ساخنة كفرن صهر المعادن ..!... كيف تحملها ؟.. »

كيف تحملها ؟..

ونظرت ليدى ففطنت لأول مرة إلى أننى لا أرتدى قفاز الحرارة .. لقد فعلت هذا أكثر من مرة أثناء الطهى ولم ألحظ .. هل يمكن ألا يلاحظ المحترق فى الجحيم أنه كذلك ؟

قلت باسمًا :

ـ « يبدو أننى تحولت لسوبرمان فجأة .. أنت تعرفين هذه اللحظة فى القصص .. الفتى العنكبوت يكتشف فجأة أنه صار عنكبوتًا آدميًا .... »

لكنهم يضحكون فى انبهار .. مصممون على أننى أمارس لعبة سحرية ما .. هكذا رفعت الصينية وتحديتهم أن يمسكوا بها فلم يستطيعوا ..

يبدو أن الأمر يعتمد على أساس الاستعداد الروحى والنفسى ، كما رأيت الهندوس يمشون فوق الفحم المشتعل .. لم أدرك من قبل أننى أملك هذه القوى النفسية ...

قمت بتقطيع اللازانيا وجلسنا نأكل ونضحك ...

بعد العشاء الناجح رحنا نتبادل الدعابات .. لم أنفرد بلارا قط ، لكن هذا كان أفضل .. لا جدوى من مزيد من التورط العاطفى الذى لن يقود لشىء ...

كانت عقارب الساعة تدنو من منتصف الليل عندما تثاءب الجميع .. ونهض (شرودر) وهو يفرد ذراعيه متمطيًا وقال لى :

ـ « لوددت لو ظللت هنا حتى الصباح ، لكن هناك قائمة جراحات رهيبة صباح غد ..... »

هكذا نهض الجميع ووجهت لهم الشكر .

الحقيقة أننى كنت فى حاجة ماسة إلى أن أخلو بنفسى ...

★ ★ ★

لما صرت وحدى أضأت مصباحًا جوار الفراش ...

كفاى .. كفاى ... يجب أن أتفحصهما فى الضوء ..

أستطيع أن أرى موضع الحرق بوضوح ... لم أكن سوبرمان المنيع بل سوبرمان الذى لا يشعر بكفه .. لقد احترق الجلد فعلاً وهناك فقاعات كثيرة ..

أمسكت بالسكين وأولجت جزءًا من نصلها فى الكف ..

بالفعل كأننى أغرسها فى شخص آخر ..

لقد فقدت الإحساس فى يدى .. أحركها جيدًا لكننى لا أشـعر بها ..

وأنا أكثر من سواى أعرف معنى هذا ..

- 3 -

حوض ماء فى الفناء الكبير .. يستحم فيه بعض المرضى ..

أحاول أن أعتاد منظـرهم برغم أننى رأيت الكثيـر منهم من قبـل ، فى وحـدة سـافارى أو حتى أثنـاء دراسـتى .. غالبًا لا توجـد أصـابع يدين وقدمين ، بل مجـرد زائدة فى نهايـة السـاعد .. الوجـه ملىء بالتجـاعيد مما يذكرك باسمه القديم عند العرب : داء الأسد .. بالفعـل تجتمع التجـاعيد مع تساقط شعر الوجـه مـع السـحابة على العينين ، ليصير الوجه شبيهًا بأسـد آدمى ...

مع الوقت يتم تدمير حاجز الأنف .. هكذا يصير الأنف تجويفًا واحدًا لا اثنين .. علامة تجدها لدى مرضى الجـذام والزهـرى ومن يتعاطون الكوكايين ..

كانـوا يستحمون فى المـاء بينمـا تأبط القس (دوجلاس) ذراعى ، وقـال لى مفسرًا :

ـ « هذه محاولة لعمل نبع استشفاء صناعى لا أكثر .. كان هناك ملك يدعى (بلادود) ـ ويقال إنه أبو الملك (لير) ـ أصيب بالجذام .... »

ـ « هل هذه أسطورة ؟.. »

ـ « بعضها وبعضها حقيقى .. المشكلة أننا لا نعرف يقينًا أى الجزئين هو هذا وذاك .. لقد أصيب هذا الملك بالجذام فهام على وجهه ، ثم خرج إلى البرية يرعى الخنازير .. أصيبت الخنازير بالجذام .... »

هذا هو الجزء الخرافى من القصة .. لا يوجد حيوان يصاب بالجذام سوى الحيوان المدرع (الأرماديللو Armadillo) الذى يعيش فى أمريكا الجنوبية ..

على كل حال تحكى الأسطورة أن الخنازير المريضة راحت تغمر نفسها فى الوحل الساخن فى موضع يدعى (باث Bath) .. النتيجة أنها شفيت ، وقد قرر الملك أن يحذو حذوها .. وشفى . هكذا عاد إلى عرشه وأسس مدينة (باث) ومنذ ذلك الحين

يُدعى أى حمام باسم Bath .. لا شك أن الماء مفيد لهؤلاء المرضى ..

قلت للأب (دوجلاس) كما يناديه الآخرون هنا :

ـ « لا أعتقد أن مرضًا ظفر بهذا الكم من القصص والأساطير مثل الجذام .... »

ـ « الجذام والصرع .. لهما تاريخ طويل مع البشرية ، والأساطير تحيط بهما فعلاً .... »

ثم حك ذقنه مفكرًا .. يبدو أنه يبحث فى ذاكرته عن قصص قديمة ، وأخيرًا قال :

ـ « هناك ملك هندى آخر اسمه (راما) أصيب بهذا الداء الوبيل .. من ثم راح يأكل العشب هائمًا على وجهه .. بالصدفة أكل من نبات يدعى (كالاو) .. هنا شفى فجأة ، وعاد إلى مملكته (بنارس) حاملاً معه هذا النبات ، وعكف على استخراج زيت منه يصلح للشفاء .. هذا هو زيت الشالموجرا Chaulmoogra .... »

كنت أعرف هذا الزيت .. العلاج القديم الوحيد تقريبًا للجذام ..

سألته عن قصة حياته وكيف جاء هنا ، فابتسم ولم يعلق .. على كل حال يمتزج التبشير والطب امتزاجًا لا فكاك منه فى قلب أفريقيا . قد تختلف مع عقيدة هذا الرجل ، لكنك لا تنكر شجاعته وإخلاصه من أجل ما يؤمن به .. الحياة وسط المجذومين للأبد عمل ليس هينًا ..

كنت الآن قد صرت ملمًّا بدورى هنا ..

أجلس فى العيادة ..

هل قلت العيادة ؟.. ليست كذلك بالضبط بل هى أقرب إلى غرفة بواب صغيرة ضيقة .. هناك مروحة سقف لا تعمل شيئًا على الإطلاق .. أحمق من يستعمل مروحة فى قلب أفريقيا ، ولربما كان توفير الكهرباء أجدى ..

هناك دكة صغيرة ومكتب من الخشب المتآكل .. وهناك ممرضة أفريقية تجلس أمام مجموعة من الأقراص .. أسماء موحية جدًا .. دابسون .. ريفامبيسن .. كلوفازيمين ..

كنت قد نسيت الجرعات التى درستها فى الكلية ، لذا كتبت جدولاً صغيرًا قمت بتثبيته بشريط لاصق إلى المكتب ، وقد جاء د. (جيرهارد) الشبيه بالفأر ليعلمنى كيف ننتقى الأدوية وكيف نميز الحالات ..

(برنادت) كانت فى غرفة بواب أخرى تفحص الأطفال .. معظم الأطفال لم يتشوهوا لحسن حظهم ، لكنك ترى البقع البيضاء عديمة اللون على أجسادهم .. البقع التى لا تحس ... وهذا معناه أنهم خطرون جدًا ..

طبعًا (برنادت) حامل ، فلا أجرؤ على أن أعطيها عقار (الريفامبيسين) كوقاية .. برغم كل شىء هى مخاطرة ... فلنأمل فقط فى العناية الإلهية وأن تكون التهوية جيدة عندها ...

أمامى على مدى البصر أرى مجموعة من المرضى يلعبون الكرة .. فى حركاتهم خرق واضح بسبب عدم شعورهم بأقدامهم على الأرض ، وهناك ممرض جاء من مكان ما وأمرهم ألا يفعلوا .. هذا قد يؤذى أطرافهم أكثر ..

عند الواحدة ظهرًا يقرر (سيدريك) أن يجلس معى قليلاً ..

(سيدريك) رجل كاميرونى عجوز .. يبدو لى أنه أول من جاء هذه المستعمرة . لقد فقد أنفه وعينًا من عينيه .. يدخن بلا توقف ، ولا أعرف من أين يأتى بالسجائر هنا برغم أنها ممنوعة .

إنه يتكلم الفرنسية .. وهو يبدأ دومًا بأن يعرض علىَّ لفافة تبغ ، ثم يحكى لى قصة مرضه منذ كان نجارًا فى قريته ، ووجدت زوجته تلك البقعة البيضاء تحت إبطه ..

ـ « قالت لى إنه بهاق .. أو لعلك ستصير رجلاً أبيض .. »

وضحكنا كثيرًا .. لكن الأمر ازداد سوءًا ..

مع الوقت بدأ يشعر بتلك الأعصاب الغليظة فى ساعده .. يمكنه أن يمسك بالعصب كحبل .. وبدأ يفقد الإحساس بأطرافه ..

ـ « كنت أمسك بكوب من الحساء أو القهوة فلا أجد خطرًا .. بينما يعجز أى شخص سليم على أن يمسكه .. كنت أحسب هذه من علامات قوة التحمل والرجولة ، ثم عرفت أن الشعور بالألم

قد يدل على الصحة أكثر من تحمله .. ثم بدأت أهشم أناملى بالمطرقة ، وصارت المسامير تخترق أصابعى فلا أدرك ذلك .. حكيم القرية (راؤل) رآنى وقال لى إننى أشكو من داء البرص .. قال إنه يعرف العلامات .... »

من الأخطاء الشائعة الخلط بين الجذام والبرص .. هذا خطأ قديم جدًا .. بينما البرص مرض لا خطر منه على المخالطين ..

ـ « قام بإعطائى زيتًا أدهن جلدى به .. جربته مرارًا وخطر لى أننى أشفى فعلاً .. طبعًا يمكنك أن ترى بوضوح أن هذا غير صحيح .. كنت شابًا لا أتحمل فكرة المرض ولا أقبلها .. الاعتراف بالمرض يجعل القرية تعاملك مثل .. مثل ..... »

ثم ينفجر ضحكًا لقوة الدعابة :

ـ « مثل المجذوم !.. »

ثم ـ عند هذه اللحظة بالذات ـ يكور لفافة التبغ ويلقيها بعيدًا ، ويشعل لفافة أخرى وهو يغمغم :

ـ « لقد أصيبت زوجتى بالعدوى .. كانت امرأة باسلة ، لكنها ضعيفة التحمل .. ماتت منذ عشرين عامًا وبقيت أنا وحدى .. لقد عشت طويلاً جدًا .. ولدت عندما كان الألمان هنا ، ثم رأيت البريطانيين والفرنسيين .. البريطانيون هم من شيدوا هذه المستعمرة فى أوائل القرن ، ثم جاء البلجيكيون ليديروها وغيروا اسمها ... لكن القس دومًا بريطانى .. هذا يحفظ للمكان توازنًا .. »

هنا يصل أحد المرضى فأطلب من العجوز أن يتركنا .. يلقى بلفافة التبغ ويرحل ...

هكذا تمضى الأيام هنا .. أحاول أن أحتفظ بسجلات دقيقة عن الحالات والعلاج الذى تتلقاه ..

هناك مكتبة كذلك .. ليست حديثة ولا مكتملة لكنها تحوى مجموعة من الكتب القديمة التى أعتقد أنها قيمة ..

لم نكن وحدنا .. هناك من يأتون لنا من (سافارى) من وقت لآخر .. (جيديون) أستاذ علم الأمراض جاء كثيرًا .. (آرثر

شيلبى) الأمريكى المتأنق المتبختر جاء ... (جريجورى روشكوف) أستاذ الأمراض الجلدية جاء كثيرًا ...

كنت أنتظر اللحظات التى يصل فيها (شيلبى) فأنت تعرف أننى أحبه .. ظريف جعجاع ثرثار ..

يقول لى وهو يضربنى فى كتفى بقبضته :

ـ « حياة مملة هنا يا فتى .. كان الجذام مرضًا جميلاً مخيفًا فيما مضى ، لكنه انتهى .. لم يعد ذا خطر كأنه نمر هشمت أسنانه وقلمت أظفاره .. إن هذا المرض لا يليق بآرثر شيلبى الرائع .. بعد هذا سوف يستدعوننى لعلاج حالات الزكام .... »

أقول له فى حيطة :

ـ « ليس مسالمًا جدًا .. لاحظ أن هذه المستعمرة بها ألفا مريض مشوه .. إن المرض ما زال خطرًا وضرباته عنيفة فعلاً .... »

فينفجر ضحكًا ويشعل سيجارًا آخر ..

★ ★ ★

كنا نلتقى فى ساعة الغداء فى تلك القاعة التى جلسنا فيها أول مرة ، وكانت (رئيسة) هى التى تقدم لنا الطعام .. لم أكن آكل تقريبًا وخاصة أن فكرة الطاهى الذى لابد أنه مصاب بــالمرض تثير ذعرى ..

هستيرى ؟.. ربما .. لكن أتمنى لو رأيتك فى مكانى ..

كنت أجلس جوار برنادت .. كانت تأكل بشهية الحوامل اللاتى استقر حملهن أخيرًا ، بعد تلك الحرب الضروس الأولى ضد هذا الجسم الغريب ..

قالت لى ضاحكة :

ـ « أعتقد أنك تدفع ثمن إجازتك بشدة !.. »

قلت لها وأنا أفتح علبة من المياه الغازية :

ـ « لست سعيدًا .. لكنى لست معذبًا .... »

قالت وهى تمضغ المكرونة الرديئة :

ـ « بينى وبينك .. أشعر أننى مهمة هنــا فعــلاً .. الأطفــال المرضى كثيرون ، وأنت تعرف أنك عندما تعالج طفلاً فأنت تنقذ مستقبلاً كاملاً .. إن هذا وقت تدخل الطب فعلاً قبــل أن يتفــاقم الأمر .. »

همست لها وأنا أنظر عبر الجانب الآخر من المائدة :

ـ « ما دامت هذه لحظة الاعترافات .. كنت سأكون أسعد حالاً لو لم يكن هذا الحيوان هنا .... »

نظرت فى اتجاه كلماتى وهى تعرف طبعًا أننــى أتكلــم عــن أبراهام ليفى .. أستعمل بصدده قاموسًا خاصًا يدور حول (السفاح) و(الوغد) و(الحيوان) .. وكانت هى تعرف رأيى فلم تعلــق ، كما أنها سمعت ألف مرة كلامى عــن الفــارق بــين اليهوديــة والصهيونية ..

كان جالسًا جوار (روشكوف) أستاذ أمراض الجلد الروســى .. بالتأكيد يتكلمان عن معتقلات النازية وما عاناه اليهود على يــد النازية .. ربما يتكلمان كذلك بلغة اليهود (اليديش) التى لا يفهمهــا

سواهما . لاحظ أننى أنظر له فلوح بيده محييًا ورسم ضحكة كريهة ...

هنا شعرت بيد توضع على كتفى .. يد أصابعها سليمة لحسن الحظ ..

كان هذا صديقى التونسى (بسام) :

ـ « علاء .. لو كنت أنهيت طعامك فأنا أريد رأيك فى مشكلة ما .... »

ـ « هل قال لك أحد إن (هانسن) تجسد فى شخصى ؟.. »

هانسن Hansen طبعًا هو مكتشف بكتريا الجذام .. لكن الدعابة لم ترق له .. عاد يكرر :

ـ « هناك أمور لا تريحنى فى هذه المستعمرة .... »

الفصل التالى لم يكتبه د . علاء عبد العظيم :

أعتقد أننى شخصت مرضى ..

أنا لست أبله .. أنا طبيب وأعرف جيدًا معنى ما حدث ..

لقد التقطت العدوى من تلك المستعمرة اللعينة فى جنوب البلاد .. صحيح أن المريض لا يصير معديًا بعد أسبوعين من علاجه ، لكن لابد من حالات جديدة لم تستكمل الأسبوعين أو فشل علاجها .. من يدرى ؟

فترة الحضانة قد تقصر جدًّا وقد تطول حتى تبلغ ثلاثين عامًا ، لكنها فى الأعم عام أو عامان .. هذا يتناسب مع بدء هذه الجولات المشئومة ..

كيف التقطته ؟.. معظم الآراء ترجح أن المرض ينقل بالتنفس .. الأنوف تحوى كميات هائلة من البكتريا ، لكن تلامس الجلد احتمال آخر وارد .... كيف يمكنك السيطرة على أنفاسك ؟..

الداء الذى ظهر أول ما ظهر فى الحبشة ، ثم وصل إلى مصر مع جيوش الفرعون العائدة للديار .. هناك على جدران معبد حتشبسوت يمكنك أن تراهم ، بملامحهم المميزة وأطرافهم المتساقطة ..

اليهود حملوا الداء معهم عندما فروا من مصر إلى الجزيـرة العربية .. وعندما وصل العرب للأندلس وعندما وصل عبد الرحمن الغافقى إلى فرنسا ، عرفت أوروبا الداء المخيف .. بعد هذا كان أكثر الغربيين الذين يذهبون للحروب الـصليبية يعـودون مـن الشرق مهزومين وقد أصيبوا بالوباء كذلك ..

التوراة تتحدث عن الداء كثيرًا .. وتفرد مقاطع كاملة للتفرقة بينه وبين البرص ..

ـ « وعلم الرب موسى وهارون قائلاً : إذا كان إنـسان فـى جلده ناتئ أو قوباء أو لمعة ثم تصير فى جسده ضربة بـرص ، يؤتى به إلى هارون الكاهن أو أحد أبنائه الكهنة ، فـإذا كانـت اللمعة بيضاء فى جلد جسده ولم يكن منظرها أعمق من الجلد ، ولم يبيض شعرها يحجز الكاهن هذا المضروب سبعة أيام ، فإن رآه الكاهن فى اليوم السابع والضربة كامدة اللـون ولـم تمتـد بالجلد ، يحكم الكاهن بطهارته .. إنها حزاز فيغسل ثيابه وتكون طاهرة .. »

الرومان كانوا يطلقون على الجـذام (داء الفيـل) وكـانوا يخلطون كثيرًا بين المرضين ...

هناك نوعان من الجذام ..

الجذام الدرنى الذى يسبب درنات فى الجلد ..

والجذام العصبى الذى يؤدى لفقدان اللون والإحساس فى الجلد ..

★ ★ ★

يمكننى سماع صوت الأجراس ..

هل تسمعها معى ؟

ترن ترن ترن ..

إنهم المجذومون يمشون فى شوارع مدن القـرون الوسـطى الأوروبية .. على كل مجذوم أن يحمل جرسًا ينذر به النـاس .. عندها يرتجف الأطفال خوفًا ، وتهرع ربات البيوت يضعن علـى الأبواب أرغفة الخبز وآنية الماء ثم يغلقن الأبـواب لأن موكـب المشئومين قادم ..

يشعلون النار وينتظرون وهم يرتجفون خوفًا ..

ترن .. ترن ..

أنا من بينهم .. لا يمكنك أن ترى وجهى لأنه مغطى بعباءة .. لكنك ترى لمحات معينة تملأ نفسك ذعرًا ..

لقد تقلص الداء فى أوروبا كثيرًا ، ولم تبق مستعمرات جذام إلا فى رومانيا .. لكن برغم هذا ظل المرض يتزايد فى النرويج .. دائمًا يرتبط اسم الجذام بالنرويج لسبب مجهول ..

نحن فى مدينة (بيرجن) النرويجية التى تعج بالمجذومين ، حتى قيل إن السبب هو أنهم يأكلون الأسماك بكثرة ، ولفترة طويلة ساد الاعتقاد أن الداء يأتى من الإفراط فى أكل السمك ..

إن قوات الشرطة تقتادنا تحت تهديد الحراب .. والمخيف أن هذا أول موكب مماثل لا يجرؤ الصبية على مشاهدته والتسلية به .. إنهم خائفون يراقبوننا من وراء النوافذ ..

تخرجنا الشرطة من المدينة لتقتادنا إلى أحد مساكن (لازار) ..

فى غرب أوروبا وحده هناك 19 ألف منزل .. مساكن لازار هى الاسم الذى أطلق على معازل مرضى الجذام ... والاسم هو اسم الشاب الذى أعاده المسيح إلى الحياة بعد ما مات وأنتن ..

فى العام 1871 .. العالم النرويجى (هانسن) يكتشف البكتريا المسببة للمرض ..

بكتريا قذرة لزجة قريبة جدًا من بكتريا الدرن ... نفس الخواص وصفات الصبغة تقريبًا ، وتقاوم مثلها بالضبط ..

* * *

ترن .. ترن ..

من قال إن المرض ينقرض ؟

هناك 11 مليونًا من المجذومين فى 70 بلدًا حول العالم .. الهند أول هذه البلدان ثم البرازيل ..

شعب صغير .. دولة ... لم يجد معها الدابسون والريفامبسين ولا ذلك اللقاح عديم النفع المسمى اللبرومين ..

لكن لماذا أنا بالذات ؟

الدراسات الحديثة تقول إن 95% من الناس يملكون مناعة طبيعية ضد المرض .. لم أعرف من قبل أننى من الـ 5% المنحوسين .. الدراسات كذلك تقول إن من هم مهيئون لهذا المرض مهيئون كذلك للشلل الرعاش ...

أعتقد أنه كابوس ..

هذا لا يحدث لى .. سوف أفيق وأكتشف أن السبب هو اللازانيا الدسمة ...

لكننى أعرف أن هذا ما حدث فعلاً .. أنام وأصحو لأجد نفس البقعة البيضاء .. وما زالت كفى لا تشعر بالألم ولا الحرارة ولا اللمس ...

المرض اللعين يفتك بمن يكافحه ..

الأب داميان ذهب ليعالج مرضى الجذام فى هونولولو .. كـان هذا عام 1863 .. ظل هناك 12 عامًا وحقق الكثير وحسب أنـه انتصر على الداء اللعين .. حتى جاء اليوم الذى أسقط فيه إنـاء من الماء الساخن على يديه فلم يشعر بأية حرارة .. لقـد وجـد المرض طريقه له ..

وفيما بعد مات بسببه ..

المشكلة أن فترة الحضانة قد تكون طويلة جدًا ...

أنا محظوظ نوعًا لأننى جئت فى زمن عرف فيه العلـم كيـف يكافح هذا الداء ، لكنى فى الوقت نفسه أعرف أن النتائج قـد لا تكون خارقة .. ربما يتأخر تأثير الأدوية ..

يمكن طلب رأى آخر ، لكن ...

وحدة سافارى كلها تتكلم عنى ..

نظرات الرعب ممزوجة بالشفقة .. يا حرام !..

(لارا) ترانى فتتظاهر بالمرح لكنها فى الحقيقة تخشى لمسى .. أعرف يقينًا أنها خائفة وأنها تمسك بأنفاسها خـشية أن تلـتقط الهدية اللعينة منى ..

كل إنسان سوف يفر منى ..

أما عن زوجتى فلن تجد صعوبة فى الطلاق هذه المرة ..

كنت أخشى التغيير طيلة حياتى ، وها هو ذا قد جاء برغمى ...

ترن .. ترن ..

أفسحوا الطريق .. هناك مجذوم آخر قادم ..

ضعوا الخبز على الأبواب حتى لا تحل بكم اللعنة واشكروا الله على أنكم لستم أنا ...!

- 4 -

عندما لحقت ببسام فى الفناء الواسع الخارجى ، اتجه إلى غرفة البواب الخاصة به .. أقصد عيادته .. فتح الباب وأجلسنى ثم نادى (بودرجا) الذى كان يقف هناك فى الفناء يتسلى بالبصق .. طلب منه أن يجلب له مريضة اسمها (فاديماتو) .. هكذا ركل (بودرجا) الرمال ليغطى آثار التسلية وانطلق جريًا .. هذا الرجل لا يشيخ أبدًا .. خفيف الحركة للأبد ...

بعد قليل عاد مع مريضة سوداء مذعورة فى العشرين من عمرها ..

وضع بسام يده على كتفها وقال لها بالفرنسية :

ـ « صديقى د . علاء يريد سماع رئتيك مرة أخرى .. »

ترجم لها بودرجا ما قيل فهزت رأسها ودخلت ورقدت على سرير الكشف ، فأشار لها بسام كى تجلس وتعرى ظهرها .. من دون ممرضة تساعدنا ؟.. واضح أنه لا يريد أن يقحم أحدًا

آخر .. وضع السماعة على ضلوعها ولمحت أنه يشير بإصبعه إلى شىء ما .. شىء يريد أن أراه دون أن تلاحظ المريضة ..

كانت هناك خطوط طولية متوازية بين اللونين الأحمر والأزرق على أعلى ظهرها ... لا أعرف ما هى لكنك تجد أشياء كثيرة فى جلد مرضى الجذام ..

فى النهاية قال لها أن تنهض .. ترجم بودرجا ما قيل .. بودرجا ليس طبيبًا لكنه مع الوقت صار مسموحًا له بأن يتواجد أثناء فحص النساء لأنه صار أكبر من أن يطرده أحد .. لكننا لا نستعمله كثيرًا على كل حال .. لغة الإشارة تجدى كثيرًا ، دعك من أن الممرضات قد يكن أفريقيات ويمكنهن الترجمة ..

انصرفت المريضة ، فجلس بسام يجفف عرقه الغزير وقال بالعربية التى نستعملها لنشعر بالراحة .. كأننا تخففنا من ثياب ضيقة خانقة :

ـ « هل رأيت ؟.. »

ـ « رأيت أى شىء ؟.. »

ـ « علامة مستعمرة (سان سيرفيه) .. كثير من المرضى يحملون هذه العلامة ... ألم تفهم بعد يا أخى ؟.. هؤلاء المرضى يُجلدون !.. »

نظـرت له فى عـدم فهـم .. هذا تجاوز لحدود الاسـتنتاج المنطقى ..

ـ « هل جننت ؟.. »

ـ « وهل عميت أنت ؟.. »

ـ « ألم تسأل أى مريض عن سبب وجود هذه العلامـات ؟.. ألم تسألها هى ؟.. »

هز رأسه وقال :

ـ « لا يتكلمون .. إنهم واقعون تحت قمع نفسى كذلك .. »

قلت فى غيظ وأنا أنهض :

ـ « بسام .. هذا سخف .. المستعمرة ليـست بعيـدة عـن العيون .. هناك أطباء من منظمة أطباء بلا حدود .. هناك زوار من الصحة العالمية .. هناك القس الذى لا أعتبـره متواطئـًا .. مستحيل .. »

ـ « من الوارد أن يتم هذا سرًا .... »

ـ « سرًا ؟... أنت تتكلم عن الجلد بالسياط .... »

ابتسم وجفف عرقه من جديد وقال :

ـ « أمس كنت ذاهبًا للمدير فسمعت صوت صراخ وصـوت شىء يرتطم بالأرض ... عندما دخلت الردهة أمام مكتبه وجدت (رئيسة) .. الخادمة .. أنت تعرفها .. وجدتها علـى ركبتيهـا وقد بدا عليها ألم شديد .. كانت تبكى بالتأكيد برغم أنك تعـرف أن وجهها غير معبر ، وكان باب المدير ينغلـق ممـا جعلنـى أستنتج من كان يقف هنا منذ نصف دقيقة

رحت أفكر فى كلامه بعض الوقت .. الأمر شبيه بجورب ممـزق كلما قلبته وجدت أنه لا يصلح .. كلام فارغ بلا أدنى شك ..

لماذا يضرب شخص مرضى الجذام ؟.. يضربهم لأنـه يريـد منهم شيئًا .. فماذا يمكن للمرء أن يريده من مريض جـذام ؟.. حتى التحرش غير وارد لأن خطر العدوى يقى هاته المريـضات من أى خطر .. يبقى احتمال آخر واه مريض هو أن المـدير ذو طبيعة سادية .. رجل يستمتع بالتعذيب . بالطبع لا أعتقد أنه يقيم هنا ويضحى بنفسه لمجرد أنه يحب ضرب الناس ..

احتمال أخير لم أطرقه من قبل هو أن (بسام) أحمق ...

قلت له وأنا أنهض :

ــ « المطلوب ؟.. ماذا نفعل ؟.. »

أراح قدميه على المقعد أمامه وقال وهو يبتسم فى مكر :

ــ « سوف ترى .. سوف ترى .. فقط أبق عينيك مفتوحتين ولا تكن جحشًا .... »

ــ « هذه طبيعة لا أستطيع التخلى عنها .. »

★ ★ ★

عند العصر جاء آرثر شلبى .. جاءت به الهليوكوبتر ومعـه (جيديون) ....

كان الحر قاسيًا وهو يمشى بين العنابر ينظر هنا وهناك والسيجار بين شفتيه ، كأنه يفتش على المستعمرة .. يلبس قميصًا مشجرًا يذكرك بما يلبسه الأمريكان عندما يزورون هاواى ...

كنت أعرف أننا سنعود معه بذات الهليوكوبتر .. هـذه مـن اللحظات الجميلة فى اليوم ، برغم علمك أنك ستـصحو مبكـرًا لتقطع ذات الرحلة من جديد ..

دنوت منه محييًا وسألته عن السبب الذى يرسم خطوطًا حمـراء داكنة على ظهر المجذومين ، فقال على الفور :

ــ « لا شىء .. فقط لو أنك ضربتهم بالسياط .. هل لديك نموذج لهذه الإصابات ؟.. »

هززت رأسى أن لا ، فلا أريد أن أعقد الأمور أكثر من اللازم ، ما دمت لا أصدق نظرية بسام فمن الخير أن أصمت فعلاً ..

فى هذه اللحظة ظهر العجوز (سيدريك) ..

كان يتصرف كالمتسولين .. يستند على عصا متآكلة ويجـر رجله التى لا تشعر بالأرض ، ويحاول اللحاق بشيلبى وهو يتكلم بالفرنسية :

ـ « أيها الأستاذ الكبير .. هناك أشياء يجب أن تعرفها .... »

نظر له شيلبى .. ثم عبث فى جيبه بحثًا عن بعض قطع العملة وناولها للرجل ، وهو ينظر فى اتجاه آخر .. لكن سـيدريك لـم يبال بهذه العملات وعاد يكرر :

ـ « أيها الأستاذ الكبير .. أنت أمريكى ؟.. أنا أحب الأمريكيين .. لم نتعامل معهم قط هنا لذا أحبهم !.... »

بالطبع لا يذكر أن شيلبى عمل هناك مرارًا من قبل . نظر لى (شيلبى) وغمز بعينه قائلاً بالإنجليزية :

ـ « لو خلصتنى منـه أيهـا الشـاب فلسـوف أعتبـرك عبقريًا .... »

لم يفهم (سيدريك) ما قيل لكنه فهم الإيماءات .. هذه نقطـة مهمة فى المجذمين .. إنهم أذكياء جدًا وهم كذلك شديدو الحساسية والعصبية .. أى أن أحدهم يمكن أن يضربك لو لاحظ أدنى علامة اشمئزاز على وجهك فى أية لحظة ..

لهذا انفجر سيدريك صائحًا :

ـ « هل تعتقد أننى أتسول ؟.. »

أمسكت بيده مهدئًا وحاولت أن أبعده عن شيلبى الذى لم يبطئ خطواته ، وقلت له :

ـ « ليس هذا ما يقول .. فقط الأستاذ الكبير مشغول جـدًا .. يمكنك أن تكلمه فيما بعد .. هيا يا سيدريك .. أنت تعرف أننـى صديقك .... »

أخرج لفافة تبغ ويده ترتجف فدسها بين شفتيه وقال :

ـ « أعرف أنك صديقى .. هناك أشياء مهمة ، لكن لا أعتقد أن لديك السلطة الكافية .. أريد شخصًا مسئولاً .. »

ـ « فقط لو شرحت لى .. »

نظر حوله إلى حيث كان بعض المرضى يجلسون على الرمال وينظرون لنا بعيون مبيضة ...

ثم دنا من أذنى وهمس :

ـ « هل يمكننا أن نلتقى غدًا عند الظهر خلف الصيدلية ؟.. »

ـ « بالتأكيد .... »

ثم تذكرت شيئًا فدنوت من أذنه المتآكلة :

ـ « هل الأمر يتعلق بالإدارة هنا ؟.. معاملة سيئة ؟.. هه ؟.. »

ظهر تعبير من الامتنان على وجهه .. وقال وهو يبتعد :

ـ « إلى الغد .. إلى الغد .... »

الفصل التالى لم يكتبه د . علاء عبد العظيم :

أنفى ينزف ... كنت أنتظر هذه العلامة وأتوقعها وأتساءل لماذا تأخرت ..

أمس كنت فى المستعمرة ..

كل شىء يتحرك بذات الإيقاع اللعين ، لكنهم لا يعرفون أننى انضممت إلى كتيبة القديسين الذين عالجوا المرض وهلكوا به .. سوف تخلد ذكراى ..

ترن ترن ....!

أحاول أن أتصرف بطريقة عادية .. لا ألفت الأنظار .. طبعًا ما لم يشب حريق أطفئه بيدى ، فلن يعرف أحد شيئًا ..

كان الطبيب الشاب المصرى (علاء) هنا .. هذا الفتى مفعم بالحيوية فعلاً ، وإن كنت لا أعتقد أنه مولع بالدراسة كثيرًا .. لم يتخصص بعد وإن كان اهتمامه بالجراحة معروفًا .. دعك من أنه

يصلح فى كل مكان تقريبًا ، وغيابه يسبب مشاكل جمة للوحدة . لنقل إنه ترس بالغ الأهمية لكنه لا يساوى الكثير وحده ..

لكنى أصبت بالبارانويا فعلاً... لقد لاحظت أنه ينظر لى كثيـرًا .. ما السبب ؟..

على مائدة الغداء ونحن نلتهم الطعام الكريه هنا ، لاحظت أنه ينظر لى طويلاً وكلما التقت عينانا تظاهر بأنه لا يرانى ..

ما السبب ؟

من المستحيل أن يكون عبقريًا لهذا الحد .. أنا حالـة مبكـرة جدًا جدًا ، ومن هم مثلى من المرضى غير الأطباء لا يلاحظـون شيئًا .. لا أعتقد أن هذا الفتى يملك موهبة أوسلر وليبمان مـثلاً .. ليبمان الذى رأى خطيب ابنتـه فنصحها بالتخلى عنـه ، لأنـه سيصاب بجلطة مخية خلال عام !

ربما هى الكراهيـة ؟.. أنت تعرف أن علاقتنا ليـست علـى ما يرام مؤخرًا ، والسبب يتعلق بعقله الصغير جدًا ...

الحقيقة أنه كان جالسًا جـوار زوجتـه يتكلم همسًا ، وهـو لا يترك فرصة يرمقنى فيها ..

يجب أن أكون حذرًا ...

ترن ترن ...

★ ★ ★

أمس قررت أن أنهى كل شىء ..

كنت وحدى فى غرفتى ..

كان قرارى كما يلى : لن أطلب عونًا خارجيًا .. لن أطلب رأى واحد يملأ الدنيا صراخًا ويخبر الجميع . قررت أن أبدأ العـلاج بنفسى وجلبت بعض الدابسون والريفامبسين ..

لكنى كنت كذلك أعرف أن هذا العلاج قد يفشل وإننى بحاجـة إلى متابعة من خبير جذام .. ولكن كيف أطلب رأى خبير جـذام من دون أن يفتضح أمرى ؟

تقول المراجع أن فرصة فشل العلاج المتعدد MDT شبه معدومة .. النجاح هو القاعدة ، ويستمر لمدة نصف عام إلى عام كامل حسب نوع المرض .. لا توجد مقاومة من البكتريا .. كل هذا جميل .. لكن من قال لك إن الذعر الذى أشعر به يستجيب للمنطق ؟.. هناك شخص واحد لن يستجيب .. وهذا الشخص هو أنا .. حتى مع التهاب اللوزتين كان الناس يشفون من كبسولة واحدة من أى مضاد حيوى ، لكن الأمر كان يتعقد معى ويجربون عدة أدوية بالحقن .. فقط ليكتشفوا أننى مصاب بنوع نادر من الحساسية ..

بحثت فى شبكة الإنترنت كثيرًا وراسلت كثيرين من الخبراء فى عدة مراكز . كانت هناك حلول لا بأس بها .. لكن المشكلة الحقيقة أضخم من هذا ..

لقد أصاب الجذام روحى .. تصور هذا عسير لكنه ما حدث فعلاً ..

روحى فقدت الإحساس ثم امتلأت بالقروح .. وتعفنت وانبعثت منها رائحة كريهة .. لم أعد راغبًا فى الحياة حتى لو شفيت من هذا المرض ..

لا شىء يبقينى حيًا .. دعك من أننى أشعر بما كان القدماء يشعرون به : الوصمة .. العار .. لقد تلوثت بهذه العدوى النجسة وصار من المستحيل أن أتطهر ..

لا شىء يطهرنى سوى الموت ...

فى العاشرة مساء دخلت إلى الحمام ، وأخرجت الموسى ..

قطع صغير هنا وصمت لمدة نصف ساعة وينتهى كل شىء ..

هكذا وضعت الموسى على معصمى .. بدأت أحركها لكن ... لا أجد الشجاعة فعلاً ...

علامات التردد التى تحدث عنها أطباء الطب الشرعى تظهر على المعصم .. مجموعة من الجروح السطحية الصغيرة المتوازية تنم عن صراع داخلى قوى ..

الكابوس الذى كنت أخشاه هو أن أغير رأيى فى لحظة ما .. عندما يبقى لتران ونصف من الدم فى جسدى وأنا أنزلق إلى الغيبوبة .. عندها يصيبنى الذعر وأغير رأيى .. أريد أن أعيش .. لكن قـدمى تنزلقان .. الدم يملأ المغطس .. دمى الأحمر الثرى جميل اللون ..

لا أريد أن أمـوت .. انهض .. ثم أسـقط ثانية .. الـصراخ مستحيل .. فم الموت مفتوح وأنا أنزلق فيه ، كما انزلق الصياد فى فم سمكة القرش فى فيلم (الفك المفترس) .. كان يـصرخ ويحاول أن يتمسك بشىء لكن سطح القارب زلق ...

كان هذا المشهد كافيًا كى أعيد الموسى إلى علبته وأفكر فـى شىء آخر ..

لدى أدوية كثيرة .. يمكن أن تحل المشكلة بجرعة عالية مـن المنوم مع بعض الكحول ..

لكنى أخشى من جديد الانزلاق لفم سمكة القرش .. ربما أندم فى اللحظة الأخيرة بينما وعيى يتسرب منى ..

لا .. ليس الانتحار ممكنًا ولن يحل شيئًا ..

يجب أن أبقى وأصارع ..

لكن لابد من حل أقوى .. حل مضمون أكثر من تلك الأدوية ..

★ ★ ★

أكره هذه المستعمرة بحق ..

تذكرنى بما يمكن أن أصير له بعد أعوام ..

هذا المريض بشع المظهر الذى يبدو كمتسول ويـستند إلـى عصا لا يكف عـن ملاحقتى حيثما ذهبت .. وهـو يتكلم طيلـة الوقت عن الأستاذ الذى لابد أن يستمع له ..

رأيته يقف .. يتكلم مع الطبيب المصرى ..

ماذا يريد منه ؟.. ربما يريد بعض أوراق العملة ..

اسمه (سيدريك) لكن ما جدواه ؟.. الجـذام يجعـل النـاس جميعًا مسوخًا متماثلةً بلا ملامح وبلا حقوق ...

لارا ... أنا بحاجة إليك ...

- 5 -

ظل عقار الدابسون ـ الذى اقترب عمره من مائة عام ـ فعالاً .. إلى أن عرفت البكتريا اللعينة كيف تقاومه ، عندها عرف العالم أن عليه أن يستعمل عدة أدوية معًا للعلاج .. هذا كلام ينطبق على الدرن كذلك .. المهم أن هذا العلاج يستمر عامًا ..

كنت راقدًا على أريكة فى غرفة الفحص أطالع كتابًا عن داء الجذام .. هناك أشباح ذكريات دراسية تبعث للحياة منذ أيام الكلية وحسبت أننى نسيتها .. إن المخ البشرى عجيب ..

لقد قطع المرض رحلة طويلة منذ فجر التاريخ حتى وجد أول علاج معقول له .. قبل هذا العلاج كانت الطريقة الوحيدة للشفاء هى السحر وأن تلمس بيدك شيئًا مقدسًا .. أحيانًا كان شرب الدم علاجًا لا بأس به .. كانت هناك أهمية خاصة لدماء القتلى كما فى الصين (أى أنك تقتل شخصًا وتستحم بدمه) وكذلك دماء الكلاب ودماء الموتى عامة .. هل يثير هذا القشعريرة ؟.. إذن ماذا عن العلاج بالإخصاء الذى ظل يمارس لفترة طويلة جدًا ؟

أول علاج حقيقى ظهر هو زيت (تشولموجرا) الذى وصفه الملك راما .. وصل هذا الزيت إلى الغرب . وعرف الغربيون أنه فعال لكن طعمه هو ألعن طعم يمكن وصفه .. وفى العام 1894 قام طبيب مصرى بتجربة هذا الزيت بالحقن لأول مرة مع مريض جذام مصرى ، وقد حقنه تحت الجلد مئات المرات قبل أن يعلن أن المرض قد شفى تمامًا ...

ثم ظهرت السلفونات فى الأربعينات .. ومعها عرف العلم أملاً جديدًا ضد هذا الوباء ..

* * *

كان أمامى الكثير كى أقرأه ..

يمكن القول بلا فخر إننى لا أعرف شيئًا على الإطلاق .. لا أذكر شيئًا أو ما أذكره لا يجيب عن أسئلتى ..

ونظرت لساعتى ..

كدت أنسى موعد ذلك الشيخ (سيدريك) ... لا أعتقد أنه سيقدم لى شيئًا مهمًا فهو ثرثار لا أكثر ، لكنى ألتزم بالمواعيد على كل حال ...

ولكن (بعد الظهيرة) ؟.. هل هذا موعد ؟... كنت أغتاظ فى مصر جدًا عندما يعطينى أحدهم موعدًا (بعد صلاة العشاء) ، فأقول له إن هذا يجعل الموعد مفتوحًا حتى صلاة الفجر .. هنا يقول فى دهشة من غبائى :

ـ « يا أخى .. بعد صلاة العشاء مباشرة .. » . هنا تبرز مشكلة ما يعنيه بـ (مباشرة) .. هل بعد الصلاة بخمس دقائق ؟.. بعشر ؟.. بثلاث ساعات ؟؟

موعدنا بعد الظهيرة خلف الصيدلية ..

قلت للممرضة إننى سأقوم بجولة ، ونهضت وقد دسست يدى فى جيبى المعطف ..

مشيت فى الشمس الحارقة ، وأنا أبعثر الغبار .. أرمق مرضى الجذام الذين يلعبون الكرة أو يجلسون جوار الجدران فى تعاسة .. اليوم هو الأحد لذا كان بعضهم ما زال فى الكنيسة الصغيرة للصلاة مع الأب (دوجلاس) .. البعض مسلمون لذا كانوا يصلون الظهر جوار جدار يلقى بعض الظل ..

درت حول الصيدلية لأقف وحدى فى مكان خال تقريبًا إلا من كلب متسلل يفتش بأنفه فى كيس قمامة .. من حسن حظك يا فتى أن المرض لا ينتقل للكلاب .. لو كنت (أرماديلو) ـ المدرع الأمريكى ـ لكانت نهايتك ..

وقفت بعض الوقت .. أعتقد أن انتظارى طال فعلاً ..

نظرت للساعة .. طبعًا الكلام سار حتى العصر ، لكن لا أعتقد أن العرض مفتوح لهذه الدرجة ..

فى النهاية أدركت أن الرجل بلا ذاكرة وأنا أحمق لأننى صدقته ..

بعد نصف ساعة من الانتظار الممل عدت إلى عيادتى ..

كان معطفى ساخنًا كأنه موشك على الاحتراق .. وجهى أحمر كالطماطم والعرق يغمرنى .. الانتظار نصف سـاعة فـى هـذا الطقس يدمرنى فعلاً .

بحثت عن دورق الماء فحملته بلا تردد ونزعت العوينات ، ثم سكبت الماء على رأسى ..

هنا دخل (بسام) الغرفة وقد بدا عليه التوتر ..

قال لى إذ رأى منظرى :

ـ « ما بك هل جننت ؟.. هناك مريض فى حالة خطرة وهـم يحاولون أن ينعشوه ..... »

أخذت السماعة وهرعت معه إلى مكان ذلك المريض ..

كان هناك فى العنابر القذرة التى ينام فيها المرضى . وجـدت ثلاثة أطباء وممرضتين يفحصونه .. من بين الأطباء عرفت ذلك الطبيب النرويجى الشبيه بفأر آدمى والطبيب الآخر نمط مارادونا .. لم نكن قد صرنا أصدقاء ، لكننا صرنا زملاء بيننا احترام متبادل ..

عرفت أن الأمر سيئ لأن القلق على الوجوه ، وهناك جهـاز محلول معلق .. ويبدو أن هناك من جاء بأنبوب أكـسجين مـن مكان ما .

دنوت أكثر فرأيت الوجه مفتوح العينين شاخص النظـرات .. (سيدريك) طبعًا ..

ـ « *كنت أمسك بكوب من الحساء أو القهوة فلا أجد خطرًا .. بينما يعجز أى شخص سليم على أن يمسكه .. »*

لا يستطيعون فحص حدقته بسبب السحابة البيضاء عليها ...

ـ « *حكيم القرية (راؤل) رآنى وقال لى إننى أشكو من داء البرص .. قال إنه يعرف العلامات .... »*

يحقنونه بالأدرينالين .. يوجه أحدهم ضربة لصدره ..

ـ « *الاعتراف بالمرض يجعل القرية تعاملك مثل .. مثـل ... مثل المجذوم !.. »*

يركبون قناة وريدية أخرى فى الذراع الثانى ..

— « *لقد عشت طويلاً جدًا .. ولدت عندما كان الألمان هنا ، ثم رأيت البريطانيين والفرنسيين* .. »

واضح أنه من النوع الدقيق الذى لا يتأخر عن موعد إلا لظروف قهرية ... كالاحتضار مثلاً ..

كان صدره يعلو ويهبط .. يمكنك سماع الروح ذاتها وهى تحاول الخروج من طاقتى أنفه فتعجز عن ذلك .. تحاول من جديد ..

سألت النرويجى عما هنالك فقال وهو يقيس ضغط الرجل أو يحاول ذلك :

— « صدمة عامة .. يبدو أنه تفاعل حساسية لعقار من العقاقير التى يتعاطاها .... »

هذا غريب .. هل يتعاطى من فى سنه ومرحلته المتقدمة أدوية ؟..
لابد أنه أخذ العلاج منذ عشرات الأعوام بجرعات كاملة ..

قال الطبيب البلجيكى ضخم العضلات :

— « من حين لآخر نعطيهم العلاج المتعدد لفترات قصيرة .. كذلك هو يأخذ مجموعة من الفيتامينات .... »

كنت أعرف أن هناك تفاعلات حساسية عنيفة جدًا فى داء الجذام .. كذلك هناك تفاعلات شبه قاتلة عندما يقرر المرض أن يتحول من نوع لآخر .. فهل هذا هو الحال ؟

— « *أيها الأستاذ الكبير .. هناك أشياء يجب أن تعرفها* .... »

كان الرجل ينزلق من بين أيدينا بسرعة ..

حقنوه بالكثير جدًا من الكورتيزون والأدرينالين — برغم سنه المتقدمة — وحاولوا أن يستعيدوه .. لكنه ازداد تدهورًا .. وخلال ساعة لم يعد بيننا ..

(سيدريك) لن يأتى للعيادة كى يضايقنى بثرثرته غدًا .. وبالتأكيد لن أعرف أبدًا لماذا أراد أن يكلمنى على انفراد ...

وقفت أرمق الجسد الذى غطوا وجهه بالملاءة ..

أريد فعلاً أن أعرف ما حدث بالضبط

- 6 -

دق المدير المنضدة بقبضته ليخرس الضوضاء التى سادت المكان ..

كانت هذه من اللحظات التى يتكلم فيها الجميع فى وقت واحد .. يمكنك أن ترى أطباء سافارى يتكلمون بحدة مع بعض ، وبما أن (سافارى) تشبه برج بابل فقد كان هناك كلام بالعربية — أنا وبسام — والفرنسية والإنجليزية وربما لغة اليديش كذلك .. هناك ذلك الطبيب الألمانى (شرودر) ... هو من المخضرمين هنا ولا تسألنى عن سبب إصرارهم على وجود طبيب تخدير ألمانى ضمن الفريق . إنه لا يكف عن تمشيط لحيته بأنامله والشجار . فى الوقت ذاته يلوح (جيرهارد) بيده ويقول كلامًا مهمًا جدًا بالنرويجية ، بينما يتبادل البلجيكيون حوارًا ساخنًا .. لماذا يضع (أبراهام ليفى) المنديل على أنفه بهذا الإصرار ؟.. هل يعانى رعافًا (نزف أنف) ؟.. أتمنى ذلك ..

من جديد دق المدير (أدلبير دونو) المنضدة بقبضته ، وعاد يكرر :

— « لن نخرج بشىء لو ظللنا نتكلم فى مجموعات صغيرة ... »

ثم ضم كفيه معًا عندما ساد الصمت وقال :

— « سأكرر .. هناك مريضان توفيا فى ظروف غامضة هذا الأسبوع .. المريض المسن الذى أعتبره أقدم مرضى المستعمرة ومريضة أفريقية فى الثلاثين .. نحن لا نعرف ما حدث بالضبط .. هناك خطأ ما .. »

قال (جيرهارد) رجل أطباء بلا حدود :

— « كل شىء يوحى بأنه أحد تفاعلات التحول فى الجذام .. »

قال المدير :

— « سلبى .. لا أعتقد هذا بتاتًا .. هؤلاء مرضى مخضرمون وقد استقرت حالاتهم ..... »

قال روشكوف الأستاذ الروسى بصوته الغليظ وفرنسية لا تطاق :

— « أميل إلى الاعتقاد بأنه تفاعل حساسية ناجم عن عقار يتعاطونه ..... »

هؤلاء الروس لا يستطيعون أن يتعلموا أية لغة .. تسمعهم يتكلمون العربية فتضحك من قلبك .. إنجليزيتهم أسوأ وفرنسيتهم

ألعن .. يبدو أن اللغة الروسية تحتكر اللسان والحلق فلا تسمح بمنافس ..

قال المدير :

ـ « لا توجد عقـاقير جديدة هنـا .. ما أخـذوه أخذوه من قبل .... »

قال آرثر شيلبى وهو ينزع عويناته ليبدو مرهقًا ورائعًا :

ـ « فهمنا أن التشريح غير وارد ؟.. »

ـ « مع البانتو .. مستحيل .. سوف يمزقوننا لو طلبنا هذا ... »

قال شيلبى وهو يضع عويناته من جديد :

ـ « أقترح أن توقـف العلاج نهائيًا .. لا تعطه إلا للحـالات الجديدة .. لن يأخذ أى مريض قرصًا من الدواء من دون علمنـا .. بعد هذا نراقب ما إذا كان وباء الموت هذا سينتهى أم لا .... »

ومد يده ليخرج سيجارًا فهتف المدير محذرًا .. التدخين ممنوع .. على قدر علمى هى أول مرة يجسر فيها أحدهم على منع شيلبى من التدخين ...

هنا تدخل أبراهام ليفى :

ـ « أسجل أن عجزنا عن تشريح الموتى يسلبنا القدرة علـى كتابة ورقة علمية .... »

قال المدير فى غضب :

ـ « لست هنا بصدد التقدم العلمى .. ما أريده هـو الحفـاظ على مرضاى أحياء .... »

ثم ضم يديه من جديد وكرر السؤال :

ـ « هل من اعتراضات أو أسئلة ؟.. »

تبادلنا النظرات .. لا أحد لديه ما يقال ..

ـ « إذن نعود للعمل يا سادة .... »

★ ★ ★

(رئيسة) كانت منهمكة فى مسح الأرضية ، بنـشاط كأيـة عاملة نظافة فى مصر تغمس الممسحة فى الدلو ثم تركع علـى ركبتيها لتمسح جزءًا آخر ..

كانت تستعمل يديها جيدًا برغم نقص الإصابة ...

ناداها الأب (دوجلاس) وكان يجيد لغة البانتو بحكم بقائه فى هذه المنطقة فترة طويلة . نهضت فى تردد وأقبلت نحونا مذعورة ..

قال لها فى كياسة ما عرفت أن معناه :

ــ « نريد سؤالك عن بعض الأشياء .... »

ثم أشار نحوى وقال :

ــ « الطبيب المصرى يسألك : هل تعاملين معاملة طيبة هنا ؟.. هل يسىء لك أحد ؟.. »

نظرت لى فى رعب ونظرت له فى هلع ، ثم قالت وهى تجفف يديها فى مريولتها :

ــ « معاملة طيبة .. كلهم طيبون .. »

تقف على قاعدة واسعة .. هذا الانطباع تشعر به بسبب قدميها العاريتين العملاقتين الحافيتين ، حتى تشعر بأنها هرم .. وبالطبع كانت قد فقدت الكثير من الأصابع فى قدميها ..

المشكلة هى أن هؤلاء القوم لا يشعرون بأقدامهم مثل الأصحاء . عندما تقف أنت فأنت تغير موضع قدمك ومركز ثقلك مائة مرة

دون أن تدرك ذلك .. الجسم يعرف ما عليه أن يفعله ، وهكذا يصل الدم لكل جزء من قدمك . عندما تموت أعصاب القدم يمكن أن تدوس على ذات النقطة من الكعب أو ذات الإصبع لفترة طويلة جدًا .. مع الوقت تتكون قرحة وهذه القرحة تصير ثقبًا مرعبًا . دعك من أنك عندما تدوس على مسمار أو حجر بارز تبعد قدمك لا شعوريًا .. هم لا يفعلون هذا ، وهكذا يكون يومهم حصادًا لا ينفد من القروح والكدمات والرضوض .. اضرب هذا فى 356 هو عدد أيام السنة .. تفهم لماذا يفقدون أطرافهم بهذه البساطة ..

كنت أدرك أنها خائفة .. لقد راهنت على أن بوسعى أن أثق بالقس ، فهل أخطأت ؟.. هل كان على أن أكلمها منفردًا ؟.. كنت سأستعين بـ (بودرجا) وقتها ..

عدت أكرر سؤالى :

ــ « هل هناك ما يقلقك أو يضايقك ؟.. »

أيتها الكاذبة .. بسام يعرف يقينًا أن المدير ضربك أمس أو منذ أيام ..

لكنها هزت رأسها نافية ..

هكذا سمح لها الأب (دوجلاس) بالعودة لعملها ، ثم تأبط ذراعى وابتعدنا ..

قال لىَ :

ـ « لا يوجد ما يقلق هنا .. صدقنى .. الجثث المتعفنة تكشف عن نفسها فى النهاية ويشم الكل رائحتها .. لا تتصور أنى هنا منذ فترة ولم ألحظ شيئًا غير معتاد .... »

قلت فى مشاكسة :

ـ « السذاجة ليست جريمة يا سيدى .. أنا أتهمك بالسذاجة .. هذا وارد .. أليس كذلك ؟.. »

ابتسم ابتسامة من يجدنى أنا الساذج ، وقال :

ـ « عندما يكون هذا مقر عملى كل هذه الأعوام ، فالسذاجة جريمة أسوأ من التواطؤ .. أريد أن تنتزع من عقلك هذه الفكرة الحمقاء عن المدير السادى الذى يضرب مرضى الجذام .. نحن فى عالم نفعى يا صديقى .. كل شىء له مبرر ومنطق .. هل يكسب مالاً من وراء هذا ؟.. بالطبع لا .. إذن دع عنك فكرة الماركيز (دى ساد) هذه .... »

كنت أفكر فى احتمال آخر .. من الوارد أن المرأة تخشى أن تتكلم فينقل القس كلامها للمدير .. فى النهاية هو ضمن آلة الإدارة بينما أنا غريب .. من الأسهل أن تعترف للغريب ..

والحقيقة أننى لم أكن أحمق ..

الفصل التالى لم يكتبه د . علاء عبد العظيم :

أنفى ينزف ... هذا شىء يتكرر كثيرًا هذه الأيام ..

لا أعتقد أن هناك من لاحظ هذا ..

البول الأحمر ليس دمًا .. إنه تأثير عقار الريفامبسين الذى بدأت أتعاطاه منذ فترة ..

ما زلت أتردد مرغمًا على تلك المستعمرة اللعينة التى دمرت حياتى . أمقت المكان وأمقت رحلات الهليوكوبتر . بالواقع لم أر فى حياتى راكب هليوكوبتر يتمنى أن تحترق وتتناثر فى الجو وهو على متنها أكثر منى . موت سهل على الأرجح من طراز (نور ــ ظلام) ..

هناك مريضان قد هلكا .. لا أعتقد أن لهذا علاقة بالعلاج .. هؤلاء الأفارقة لديهم ترسانة كاملة من الأمراض التى تقتل ، ولا يمكن تذكر كل هذه الأسماء ..

على كل حال دعا المدير الجميع لاجتماع سريع ..

لقد كان الأمر أشبه ببرج بابل فعلاً .. نرويجيون وبلجيكيون وأمريكى وبريطانيون وعرب وروس ...

للأسف لم أستطع أن أدخن .. المدير يمنع هذا .

لم نستقر على شىء .. فقط قرروا وقف إعطاء الدواء لفترة ..

لم أكن أتابع ما يقال جيدًا .. كنت أنظر إلى كفى طيلة الوقت . بالفعل امتلأ الكفان بالقروح .. وظهرت فقاعات مليئة بالسائل من فرط التعاطى مع الأجسام الساخنة ..

كما توقعت : العلاج فاشل معى .. لابد من شىء أقوى .. لو كنت مريضًا عاديًا لأمكن السيطرة على المرض خلال أسبوعين ، لكنى أعرف أننى أعيش على الثغرات ..

لو رأى أحدهم هذه القروح لشك فى أمرى .. هناك كذلك قشور السمك على ساقى .. منظرها موح جدًا وإن كان ينبغى أن تكون مختصًا بالأمراض الجلدية كى تعرف علاقتها بالجذام ..

الحقيقة أننى أغدو مريبًا مع الوقت ..

طرقات على الباب ..

اتجهت لأفتحه فوجدت لارا تقف هناك وقد دست يديها فى جيبى معطفها وكانت تضحك :

قلت لها وأنا أتراجع لأسمح لها بالدخول :

ـ « تركت العمل وجئت ؟... هذا يثير غرورى .... »

قالت وهى تضغط نفسها لتدخل بين فرجة الباب وبينى :

ـ « أنت تتهرب منذ فترة ولا أعرف السبب .... »

السبب هو أن أنفاسى خطرة يا فتاة .. هل ترين أنفى ؟.. هذا لم يعد أنفى بل هو مصنع حرب بيولوجية وكل زفير يخرج آلاف العصويات القاتلة ... مناديلى الورقية التى صرت أحرقها بعناية هى سلاح تتصارع عليه الدول الكبرى ..

ـ « منذ عيد ميلادك .. لابد أن شيئًا ما ضايقك .... »

ـ « الانشغال لا أكثر .. و ... والجذام .... »

ـ « الجذام ؟.. »

ـ « تلك المستعمرة اللعينة .. أنام مبكرًا لأصحو مبكرًا حيث تنتظر الهليوكوبتر لترج معدتى رجًا .. ثم اليوم الطويل المرهق والعودة قرب الليل .. هذا روتين حياة قاتل .... »

راحت ترمق المسكن الضيق فى فضول ، ثم اتجهت بخطوات ثابتة إلى الثلاجة .. فتحتها وأخرجـت زجاجـة مـاء ونزعـت غطاءها ..

قبل أن تفهم ما حدث كنت قد انتزعت الزجاجة من يدها ..

ـ « ماذا هنالك ؟.. »

ـ « غير نظيفة .. الزجاجات غير نظيفة .. لم أغسلها ويخيل لى أن هناك صرصورًا فى الغرفة .. »

بدا عليها الرعب واتسعت عيناها .. قلت لها فى سرى : لو كنت تخافين الفئران والصراصير فلماذا جئت إلى أفريقيا يا بلهاء ؟.. لو قابلت ثعبانًا تحت الفراش لقتلت نفسك ..

عادت تواصل تفقد المسكن ، ثم توقفت أمام الـ .....

أمام مرآة الحمام ..

للنساء موهبة غير عادية فى العثور على الأخطاء . يـصلحن مفتشات ممتازات ..

لقد وجدتها تمسك بشريط دواء فى يدها ، وتسألنى ببراءة :

ـ « ريفامبيسين ؟... هل أنت مريض ؟.. »

الريفامبسين ليس عقـارًا شائعًا تجـده فى غرفتك .. لـيس (أسبيرين) أو مزيلاً للتقلصات لو كنت تفهم ما أعنيه .. لابـد

من مرض خاص يبرر وجوده .. ليست عينة طبية بالتأكيد لأنــه من الواضح أننى أخذت بعض الكبسولات ..

قلت فى غيظ :

ــ « مشاكل فى البول ... التهاب ما .. تلاحظين أننى لــست شابًا مفعمًا بالحيوية .. هذه هى السن التى يقرر فيها جسدك أنه عمل أكثر من اللازم .... »

قالت بلهجة ذات معنى :

ــ « ما زلت أراك شابًا وسيمًا .. »

لم أرد ، فقالت وهى تنظر فى عينى :

ــ « ألم تفكر فى الأمر ؟.. لابد من نهاية لهذا الوضع المعلق .. الحب ينتهى بالزواج أو الفراق .. لكنه لا يبقى للأبد .. »

طبعا كانت مشاريعى السابقة قد زالت للأبد .. منذ أيام كنــت أحاول قطع شريان معصمى ، فكيف أفكر فى الطلاق والزواج من جديد ؟

قلت لها فى نفاد صبر :

ــ « سوف يكون لهذا وقته .. لكن ليس الآن .... »

عادت تنظر لى طويلاً ثم تقــول الكلمة التى تحب النــساء أن يقلنها :

ــ « أنت تتغير كثيرًا .... »

قلت ساخرًا :

ــ « قرون الاستشعار التى تخرج مــن الــرأس والجناحــان الوليدان على الظهر .. هذه أشياء لا تكفى لجعلى تغيرت .... »

كنت أتكلم عن فيلم الرجل الذبابة .. بالفعل .. أنا مثــل بطــل الفيلم الذى بدأ يتحول لذبابة آدمية مشوهة ، ويحاول إخفاء هذا عن الجميع إلى أن تصير التغيرات أكبر من أن يخفيها .. عندها يصدر طنينًا ويبدأ فى لعق السكر ..

متى سألعق أنا السكر ؟

أعتقد أن هذا قريب ....

- 7 -

هذه المرة كان بودرجا معى .. لم يكن هناك واحد آخر ..

كانت منهمكة فى تعليق الغسيل على الحبل فى الفناء الخلفى ، وكان هناك دجاج يلتقط الحبوب من حولها .. صورة بيت ريفى هادئ لو لم تكن تستعمل أصبعين فقط من كل يد ، ولم يكن وجهها مشوهًا ..

دنا منها بودرجا وطلب الكلام ..

كانت مذعورة كالأسماك ، لكن بودرجا ظريف ثرثار ، وقد تكلم معها كثيرًا .. فى النهاية هو كاميرونى ومن البانتو وأسود مثلها .. هذا يكفى ليريحها نفسيًا ..

ـ « رئيسة .. أنا أعرف أنك تعرفين سرًا .... »

نظرت حولها فى رعب ثم صمتت ...

الإجابة هى نعم إذن ..

ـ « ما هو ؟.... .. »

المزيد من الرعب ..

قلت لها وأنا أوجه الكلام لبودرجا :

ـ « أنا مصرى .. هل تعرفين معنى هذا ؟.. أنا أفريقى مثلك .. لو كنت تشكين فى الرجل الأبيض فأنا لست هو .. أعتقد أن على أن أفهم ما يدور هنا .... »

نظرت حولها فى رعب ثم تكلمت ...

كان ما قالته مهمًا فعلاً وليتنى أستطيع أن أنقله بالصوت والصورة ...

كنت أعرف أنها ستقول هذا الكلام أمام لجنة من منظمة الصحة العالمية أو وزارة الصحة الكاميرونية .. لا أعرف بالضبط .. لكنها ستقوله وسأشعر براحة كبرى ...

باختصار : مدير المستعمرة يعامل المرضى معاملة غاية فى السوء ويستخدمهم كجيش من الزومبى فى خدمته .. فعلاً هو يجلد بعضهم ..

ـ « وهل يعرف القس هذا ؟.. ورجال أطباء بلا حدود ؟.. »

ـ « لا .. كل شىء يتم سرًا فى مكتب المدير عندما لا يوجد أحد .. تساعده إيما رئيس التمريض و(جاكسون) الطبيب

الأفريقى .. لكن هذه ليست المشكلة .. هو سيئ الخلق لكن هذه ليست المشكلة كذلك .. المشكلة أنه يستولى على أكثر التبرعات والمساعدات المالية التى تصل إلى المستعمرة .. هناك حسابات مزورة وأثمان أجهزة بولغ فيها ..... »

فكرت قليلاً ... البروفسور (أدلبير دونو) ليس نقى النفس إلى هذا الحد .. ما يحدث مع أى مدير يتلقى معونات ولا يخضع لرقابة ، وليس من الصحابة .. مع الوقت تفقد السرقة جسامتها الأخلاقية ، ثم يكتشف أن الثراء سهل جدًا ... على كل حال كل واحد يعرف أن المعونات والأموال التى تصل لأفريقيا لا تصل للمحتاجين أبدًا .. تصل لجيوب المسئولين أو تصل لجيوب تجار السلاح ..

هذه أشياء تدير الرءوس .. عندما كان هناك استعمار كان هناك قمع واستعباد وسرقة موارد .. ثم رحل الاستعمار فظهر استعمار من نوع آخر ، وهو أقسى وأشد شراسة .. الأمر الذى جعل دولاً كثيرة فى أفريقيا تتساءل : ألم نكن أفضل قبل الاستقلال ؟..

لكن لماذا الآن ؟.. لماذا قرر (سيدريك) أن يخبرنى أنا ؟.. كان بوسعه أن يخبر أى واحد آخر ، فالمستعمرة تعج بالغرباء .. كان بوسعه كذلك أن يخبر أى واحد من (أطباء بلا حدود) بشكوكه .. هذه منظمة نظيفة بعيدة عن الفساد ..

ــ « هل كان (سيدريك) العجوز يعرف هذا الكلام ؟.. »

نظرت فى عدم فهم ثم قالت :

ــ « وكيف له أن يعرف ؟.. هو مجرد مريض يأخذ ما يعطى له .... »

لكنى أعرف أن سيدريك كان يعرف .. بالتأكيد كان يعرف ...

ــ « وكيف تعرفين أنت ؟.. »

ابتلعت ريقها وألقت بقطعة من القماش المبتل على الحبل وقالت :

ــ « لأننى معهم أكثر الوقت ، وهم يحسبون أننى لا أفهم الفرنسية .. يتكلمون على راحتهم .. أنا أفهم الكثير من الفرنسية لكن لا أتكلمها .. »

عبثت فى لحيتى بعض الوقت ثم سألتها :

ــ « ولماذا لم تتكلمى قط ؟.. »

تحجرت دمعتان فى عينيها وهى تعض مشبك الغسيل ، وقالت من بين أسنانها :

ــ « ليس لى مكان غير هذه المستعمرة .. لم يعد لى أهـل ، وفى قريتى لن يرحبوا بى .. لن يتزوجنى أحد ولن يرعانى أحد .. لو تكلمت لألقوا بى فى الخارج .. ثم إننى لا أملك دليلاً .. لابـد أنهم أحسنوا إخفاء آثار ما يقومون به .. »

فكرت بعض الحين ، ثم وجدت أنه من الأفضل أن أبتعد مـع بودرجا .. لو كان حدسى صحيحًا فالجدران هنا لها آذان ... صحيح أنها آذان متآكلة بسبب الجذام لكنها قادرة على السمع ...

★ ★ ★

أخرج بودرجا برتقالة (من أين جاء بهـا ؟) وقـضم منهـا قضمة كبيرة كأنه لم يسمع بعد أن البرتقال يتم تقشيره أولاً ، ثم سألنى وهو يلوك الألياف الصفراء :

ــ « تفو .. ماذا تنوى عمله يا دكتور ؟.. »

كنت أنا وهو وبسام وبرنادت جالسين على الأرض جوار جدار عتيق متآكل ، وكانت الشمس قد بدأت تنهزم قليلاً بعد ما أرهقها كفاح اليوم .. بعد نصف ساعة تصل طائرة سافارى لتحملنا إلى بيتنا النظيف المريح ... وكنا قد فرشنا غطاء ممزقًا على الغبار ليتيح لنا الجلوس ..

قلت له وأنا أعبث بعصا فى الغبار :

ــ « لن نثبت شيئًا .. لكن بوسعنا أن نطلب مـن يفـتش .. سوف أخبر المدير وهو سوف يتصرف .... »

قالت برنادت :

ــ « ثمة احتمال لا بأس به أن التهمة ظالمة .. كيف لمريض عجوز أو خادمة أن يعرفا هذا ؟... فى رأيى أن القصة قد تكون معكوسة .. المدير لا يضربها لأنها تعرف .. بل هى تزعم أنهـا تعرف لأن المدير يضربها .... »

ــ « فكرت فى هذا كثيرًا .. لكن لا أستطيع نفـى أو إثبـات كلامها .. نحتاج إلى محاسبين وخبراء دفاتر .. هـؤلاء سـوف يعرفون كل شىء .... »

قال بسام :

ــ « بالفعل .. لابد من مخاطبة الجهات المانحة .. لا يمكنك معرفة ما سرق أو لم يسرق ما لم تعرف ما دخل الوحدة أولاً ... .. »

هنا سمعنا تلك الممرضة تصرخ ... ورأينا حركة غير عاديـة .. هناك طبيب يضع معطفه على كتفيه مسرعًا ويهرع نحو ..

نحو المطبخ !

تبادلنا النظرات فى رعب ....

ماذا يوجد فى المطبخ ؟.. من يوجد فى المطبخ ؟

- 8 -

على الأرض ترتجف ..

تمسك بالبلاط بأناملها محاولة ألا تنزلق غائـصة فـى قلـب الأرض حيث الشياطين ....

حولها تناثرت ثمرات الطماطم وحبات البـصل والليمـون .. والطاهية الأفريقية تولول كالمجانين ولا تكف عن صفعها ..

نائمة على ظهرها بينما الطبيب يحاول للمرة الثانيـة قيـاس ضغط دمها ، ثم يصيح بلغة البانتو فى الممرضات الأفريقيات .. طبعًا يقول لهن :

ــ « لنحملها إلى العيادة بسرعة !.. »

وهرعنا نحمل (رئيسة) إلى العيادة .. بينما من مكان ما برز المدير البروفسور (دونو) ليتساءل فى دهشة :

ــ « ماذا هنالك ؟.. »

ــ « (رئيسة) فى حالة صدمة .. إنها فاقدة النبض وضـغط الدم .. »

بدت على وجهه علامات الدهشة والأسف ، ثم قال :

ـ « أعطها كل مزية ممكنة .. »

وعلى فراش فى العيادة التى اختارها الطبيب أرقدوها ، وبدأت محاولات الإنعاش الخرقاء .. لا تستجيب ..

ـ « *ليس لى مكان غير هذه المستعمرة .. لم يعد لى أهـل ، وفى قريتى لـن يرحبـوا بى .. لن يتزوجنى أحد ولن يرعـانى أحـد ....* »

يحقنون المزيد من محلول (رنجر) فى عروقها ..

ـ « *وهم يحسبون أننى لا أفهم الفرنسية .. يتكلمون علـى راحتهم ....* »

يحقنون البيكربونات والأدرينالين ..

يعيد الطبيب قياس ضغط الدم .. يبدو على وجهه القنوط ...

تلحق بى (برنادت) و(بسام) هناك .. ويدركان على الفور معنى هذا المشهد التراجيدى .. أنا أكره هذه المهنة .. أكرههـا .. لا أريد أن أكون طبيبًا بعد اليوم .. الـسباك وسـائق التاكـسى والنجار يعدون بشىء ويقدمونه لك ويعرفون أنهم قادرون على

تحقيقه ، أما أنا فقد سئمت هذه الوقفة البلهـاء والعجـز علـى وجهى ...

كان المدير (دونو) قد جاء ومعه القس وطبيـب (أطبـاء بلا حدود) الفرنسى ، وكذلك شيلبى وجيديون .. وقفوا يراقبون ما يحدث ، بينما هز الطبيب الأفريقى رأسه فى أسى وقال :

ـ « أعتقد أنها انتهت يا سيدى .... »

ـ « والسبب ؟.. »

هز الطبيب رأسه وقال :

ـ « مثل الحالتين السابقتين .. صدمة غير مفهومة .. لكنـى أقترح إجراء تشريح هذه المرة ، فقد كانت صحتها ممتازة ، ثـم أنها ناقصة الأهلية ولن يشكونا أحد .... »

قال المدير فى صرامة :

ـ « أنت لا تحدد لى سياستى يا دكتور .. عليك أن تبذل مـا بوسعك ثم تصمت .... »

كنت أنا قد بلغت ذروة تحكمى فى نفسى

يقول الغربيون إن شريحة السليكون فى رأسى قد بلغت نهاية تحملها ، ويقول العرب إن السيل قد بلغ الزبى .. كلها تعبيرات تحمل نفس المعنى ... المهم أننى أعرف ذلك الشيطان عندما يتحرك فى جمجمتى وصدرى .. أعرفه عندما يدق على جانبى رأسى وعندما يتسارع نبضى ويوشك قلبى على التوقف ..

هكذا قلت بصوت خافت :

ـ « هذا طبيعى .. يجب أن تقول هذا .... »

هنا رأيته ينظر لى ويقول فى حدة :

ـ « ماذا قلت ؟.. »

رفعت صوتى أعلى وأنا أرتجف غضبًا :

ـ « يجب أن تقول هذا .. لن تسمح بالتشريح لأنك تعرف أنك القاتل !.. »

ـ « عم تتكلم بالضبط ؟.. »

وكانت برنادت وبسام قد فهما ، فأسرع بسام يضغط على ذراعى لأسكت ، وقال بالعربية :

ـ « تتكلم بارشا (كثيرًا) .. تتكلم بارشا !... اصمت .. نحن لم نتكلم معًا بعد !.. »

لكنى كنت قد استسلمت تمامًا لشيطان الغضب ، وسمحت له أن يضع أعلامه على حدود ملامحى وصوتى وكلماتى :

ـ « أنت تخلصت منها ومن (سيدريك) لأنهما يعرفان أكثر من اللازم .. »

قالت لى برنادت :

ـ « علاء يا أحمق .. أنت أحمق !.. »

بالفعل كنت أحمق .. لا يجب أن أعلن عن أفكارى فقد تفيد الرجل ، ولربما يفتش عن آثار أقدام يزيلها قبل أن يأتى أحدهم للتحقيق .. لكنى كما قلت لك كنت قد فقدت التحكم فى نفسى ..

هكذا واصلت الانفجار :

ـ « أنا اتهمك بتدبير قتل هؤلاء الثلاثة .. أنا شاهد على أنهم يعرفون الكثير عنك وكادوا يفضحون أمرك ، لذا قمت بإسكاتهم كأى رجل مافيا .. سوف تدفع الثمن ... »

قال الأب دوجلاس وهو ينزع عويناته وقد وجد أن هذا الذى قيل وحدث خلال ثلاث دقائق أمر يفوق قدرته على التخيل :

ـ « د. عبد العظيم .. أرجو أن تتمالك أعصابك .. ثمة كلمات لن تستطيع الاعتذار عنها مهما حاولت فيما بعد .... »

ـ « ومن قال إننى سأعتذر ؟.. سوف أتهمه فى كل مكان ما لم يبادر بقتلى أنا الآخر .... »

كان شيلبى وجيديون يقولان أشياء بغرض تفسير موقفى .. لا أعرف ما يقولان .. إن موقفى واضح ولا يمكن فهمه بشكل آخر ..

وخطر لى أن أتخلى عن كل شىء وأمسك بالرجل لأوسعه ضربًا .. إنه أقل منى حجمًا ويمكننى أن أحوله إلى عجين ، لكننى لحسن الحظ قررت أن هذا سيكون سوقيًا أكثر من اللازم .. من المستحيل أن أدافع عن نفسى وقتها ..

قال المدير بعد ما ابتلع الصدمة الأولى :

ـ « سيدى .. سوف تدفع ثمن هذا الكلام وسيكون غاليًا .. سوف أطالبك بتعويض على إهاناتك .. احمد الله على أننا فى زمن متحضر وإلا لطلبتك للمبارزة .. »

كورت قبضتى وصحت فى تحد :

ـ « مبارزة ؟.. هل تريد هذا الآن ؟.. »

نظر لجيرهارد النرويجى .. وهذه المرة تبادلا الضحكات .. هذا أشعل جنونى أكثر .. لا أريد ضحكات بل أريد غضبًا وامتعاضًا .. الضحك بطريقة (هذا الفتى مجنون) أو (قل له شيئًا) .. هذا يقتلنى فعلاً ..

ثم أنه استدار فى وقار وابتعد ولحق به نصف الفريق ..

* * *

ـ « مجنون .. أنت مجنون ..... »

قالها لى بسام وهو يجذبنى من ذراعى إلى الفناء ، وأردف :

ـ « أمثالك كانوا يربطون بالسلاسل فى قبو .. أو تراهم وقد وضعوا الكسرولة على رءوسهم .. »

قالت برنادت باسمة :

ـ « إنه زوجى وأنا أعرف طباعه .. لو لم يفعل هذا لظننت أنه جن فعلاً .. »

ثم قدمت لى قطعة من اللادن وقالت :

ــ « امضغ لتهدأ أعصابك ... أنت تعرف طبعًا أن أول ما سـيفعله هو أن يستغنى عن خدماتك هنا .. هذا آخر يوم لك هنا .... »

ــ « لا يضايقنى هذا .. بل ربما يسعدنى ..... »

ثم أضفت وأنا ألوك اللادن :

ــ « كلا .. لن يسعدنى بعد اليوم .. فكرة أن هـذا الحيـوان طليق يتلذذ بتعذيب المجذومين تثير جنونى ..... »

ــ « سوف تقدم شكوى ضده بمجرد العودة .. ما لـم يـضع لغمًا فى الطائرة طبعًا .. »

فى هذه اللحظة بالذات ، كانت الطائرة تهبط ببطء وسط الفناء مبعثرة الغبار كالعادة من حولها .. الشمس تنحدر غربًا مما جعل المنظر يبدو كأنها ذبابة عملاقة تهبط هناك ..

ومن بعيد جاء باقى فريقنا فى موعد العودة اليوميــة .. أرى سلويت شيلبى وسلويت جيديون الفارع وليفى الأحمق وشرودر وروشكوف .. إلخ ..

قلت وأنا أنهض متجهًا للطائرة :

ــ « سوف نرى .. لو انفجرت الطائرة فى الجو ، فأنا عبقرى ! ولو لم تنفجر فأنا حمار .... »

قالت برنادت :

ــ « حمار حى قد يكون أفضل من عبقرى تنـاثرت أشـلاؤه فوق الأدغال .... »

ــ « سوف نرى .. »

الفصل التالى لم يكتبه د . علاء عبد العظيم :

اليوم وجدت قرحة عميقة فى قاع قدمى ..

لقد بدأ فقدان الإحساس فى الأعصاب الطرفية يؤذى فعــلاً .. أصابنى الذعر أمس عندما دخلت الفراش وعند الفجر أدركت أن الخف ما زال فى قدمى .. هذه علامة قديمة على تلف الأعصاب الطرفية ..

هناك شىء خطأ .. الدواء لا يعمل .. لا القديم ولا الجديد ..

هل أستعمل جرعات خاطئة ؟.. هل الدواء تالف ؟..

لا أحد يقدر على الإجابة عن سؤال كهذا سوى خبير جذام .. ليس مختص أمراض جلدية ، فالجذام مرض يحتاج إلى أن تكون قد تعاملت معه وجربت التوفيق والفشل وعدلت الجرعات ..

لقد مر شهر على معرفتــى الحقيقــة ، وهــو شــهر شــبيه بالكابوس ..

هل أتنازل عن كبريائى وأطلب رأيًا آخر ؟.. سوف يغير هــذا الكثير .. الجذام مرض يتم الإبلاغ عنه ، وسوف يعرف الجميــع قصتى .. لن يعود شىء كما كان وسوف يخشانى الجميع ..

لارا ... هل ستطلبين الزواج منى عندما تعرفين الحقيقــة ؟.. على الأرجح لن أرى وجهك ثانية ..

★ ★ ★

هناك ثلاثة قد هلكوا بتفاعلات دوائية حادة ..

الأمر ليس صدفة وبالفعل حان وقت اتخاذ قرار ما ..

كان (علاء) الشاب يحاول استجواب الخادمة (رئيسة) مع الأب دوجلاس .. عن أى شىء ؟.. الأب دوجــلاس لا يـستطيع إخفاء الكثير من الأسرار على كل حال ..

لما التقينا فى الفناء كان يلعب كرة المضرب (الراكيت) مــع أحد المرضى ، فوقفت أراقب المباراة بعض الوقت .. كنت أثبت عينى على المجذوم لأسباب معروفة .. وجهه الذى يشبه الأســد فعلاً وعينيه الحمراوين كالدم ...

لكن لياقة الأب انتهت سريعًا فراح يـسعل وطلــب الراحــة ، فدنوت منه أسأله عما كان (علاء) يريد من الخادمة .. قال لى وهو يلهث :

ــ « يعتقد أن هناك من يضرب المرضى .. ويميل للاعتقـاد أنه المدير .. »

ــ « وهل تعتقد ذلك ؟.. »

ــ « مستحيل .. أدلبير لا يفعل هذا .. لكن الفتـى يقـول إن هناك آثار جلد على ظهور معظم مرضى المستعمرة .... »

كنت أعرف جيدًا أن هذا الكلام صحيح .. لقد رأيت المـشهد مرارًا ..

كان (أدلبير) المدير يعمل على أساس أن هـؤلاء المرضـى رصيد لا ينفد لإخراج ساديته وقسوته وتوتره العصبى .. قليـل جدًّا من المحظوظين من يملك مئات المرضى ليضربهم إذا أراد ، خاصة وهم لا يجسرون على الرد أو الشكوى أو طلب الشرطة .. معظم هـؤلاء بلا بيت ولا أسرة ولا يعرفون مكانًا آخر .. لهـذا تحـول (أدلبير) إلى نوع من الأب .. أبوك قد يـضربك لكنـك لا تشكوه لدى الشرطة بل تقنع نفسك أن هذا مهم لتربيتك ..

رأيت هذا كثيرًا ، وأعرف جيدًا أنه كان يتم خلسة .. لـم يـر القس شيئًا كهذا ولا الأطباء بلا حدود .. السبب أنــه لـم يكـن يعاقب مرضاه إلا وهو يعرف أن القس فى الكنيسة والأطباء فى

عملهم .. أنا قصدت مكتبه فى وقت كهذا وسمعت صوت ســوط يهوى على لحم ، ثم خرجت إيما الممرضة الـشمطاء ونظـرت نحوى نظرة سريعة ثم انصرفت ..

لماذا لم أتخذ إجراء ؟

لأن أحدًا لن يصدقنى .. ولأن هذا ليس مــن شــأنى .. منـذ صباى تعلمت أن من يتدخل فى غير شئونه يعاقب بقسوة ..

الأب لا يعرف وأنا أصدقه .. عندما تكون لديك خبراتى يسهل أن تعرف الكاذب بسهولة ..

لكن د . علاء ظل يحتفظ باندفاع الشرق أوسطيين الشهير ..

فى اليوم التالى توفيت تلك الخادمة (رئيسة) .. عرفت هــذا .. لقد صدم موتها الجميع لأنها كانت مــسالمة كبقـرة لا تــؤذى ولا تتكلم .. لكن يبدو أن درجات الصدمة تتفاوت ..

كان واقفًا يتشاجر مع المدير واتهمه بأشياء كثيرة .. اتهمــه بأنه قتل هؤلاء الذين ماتوا لأنهم يعرفون أكثر من اللازم ..!

هذا الفتى مجنون ! لابد أن يرى الكثير من أفلام العصابات ..

سوف تفتح أبواب الجحيم وسوف يكون انتقام (أدلبير) مروعًا .. هذا الرجل مخيف وليس من المستحب أن تتحول إلى عدو له .. إنه يشرب الدماء ويلتهم الحناجر ..

على كل حال مؤكد أن علاء لن يأتى للوحدة ثانية لأنه عنصر ضار .. ربما يتم التخلص من زوجته كذلك ..

لا ألومه كثيرًا ..

لا ألوم أحدًا على ما حدث .. ربما استراح هؤلاء الذين ماتوا ، فهم مصابون بمرض عضال على كل حال ، ولو أنك أجريت استفتاء لوجدت أنهم يرحبون بالموت فعلاً ...

سيكون على أن أكلم د . (ميخائيل) من جديد .. لن أستطيع الاستمرار فى هذا ..

فى الوقت ذاته أعتقد أن على أن أعلن الحقيقة .. لا أدرى متى سوف أقرر هذا لكنى سأذهب فى يوم ما إلى مكتب د. (أدلبير) لأريه يدى وأقول بوضوح تام :

ـ « أنا مجذوم يا سيدى وأريد علاجًا صحيحًا .. لقد جربت علاج نفسى بلا جدوى والمرض يزحف بلا توقف .. أرجوك أن تنقذنى قبل أن أتحول إلى أسد ... قبل أن ألعق السكر وينبت فى ظهرى جناحان !.. »

ترن ترن ....

- 9 -

وكان (بارتلييه) بانتظارى بالكلمات المعهودة :

ــ « كالعادة أنت مشكلة تمشى على قدمين .. أدرينالين مجمد على شكل إنسان .. كالعادة تتهم الناس وتصرخ فى وجوههم وقد قال الشهود إنك كنت موشكًا على ضرب .. ضرب من ؟.. البروفسور (أدلبير دونو) المقرب لدى الحكومة الكاميرونية وصاحب العلاقات القوية فى وزارة الصحة .. تخيل لو أنك ضربته ؟.. »

قلت فى عناد البغال :

ــ « من المؤسف أننى لم أفعل .. كنت سأشعر براحة جمة .. »

هنا نهض (باركر) الشهير أيضًا بأنه (غراب البين) وصاح فى عصبية :

ــ « أنت تتقدم فى السن يا دكتور (عظيم) .. تتقدم .. لقد انتهى عصر المغامرات العصبية والاندفاع وتوجيه اللكمات وإطلاق الرصاص على أسطوانات الغاز .. انتهى !.. »

قال المدير (بارتلييه) بلهجة أكثر هدوءًا كما تقضى قوانين لعبة (الشرطى الطيب ــ الشرطى الشرير) :

ــ « طبعًا لن نرسلك هناك ثانية .. لكنه قدم شكوى ضدك لى وللمركز الرئيس ولوزارة الصحة الكاميرونية .. من الوارد جدًا أن تجد نفسك فى طائرة متجهة لمصر .... »

ــ « سيكون هذا رائعًا .... »

ضحك طويلاً فراح الشحم يهتز فى لغده ..

أنت تعرف أننى أحب هذا الرجل ، وهو كذلك يحبنى جدًا .. لابد أننا سنلتقى يومًا ما فى عالم مثالى ، حيث نصير صديقين لا أكثر ولا يجد نفسه مكلفًا بالحزم معى ..

كنت أعرف كذلك أن 80% من هذا الحزم مصطنع يريد به أن يقنع (باركر) أنه ليس رخوًا ..

قلت وأنا أجلس على الأريكة :

ــ « سوف أقبل أى شىء .. لكن أرجوكم أن ترسلوا بعض المحاسبين الشرفاء إلى هذا الرجل .. سوف تجدون عجبًا ..

سوف تجدون أنه يلتهم معظم المعونات التى تصل للمستعمرة .. كذلك أطالب بتشريح جثة الخادمة (رئيسة) .. »

قال (بارتلييه) وهو يفتح ملفًا أمامه :

ــ « ليست لنا سلطة على تلك المستعمرة ولا أحد يقدر علـى عمل شىء سوى وزارة الصحة الكاميرونية .. لكن هناك من قدم بلاغًا يقول إن الوفاة غير طبيعية ، وقد تم نقل الجثة إلى ياوندى العاصمة لتشريحها .... »

ــ « من قدم البلاغ ؟.. »

ــ « مجهول .. »

قلت فى انتصار وأنا أهب من مقعدى :

ــ « هل ترى ؟.. لست الوحيد الذى يتهم هذا الوغد .... »

قال باركر منذرًا :

ــ « لغتك يا فتى .. لغتك .. »

ببراءة قلت :

ــ « فتى ؟.. أنت قلت إننى تقدمت فى السن .. »

هنا قال (بارتلييه) ليمنع هذه المجادلة :

ــ « علاء .. يجب أن تنتزع هذه النظرية من رأسك .. هناك ثلاثة موتى .. لا تعرف الأولى .. لا تعرف ما كان ذلـك الرجـل المدعو (سيدريك) سيخبرك به .. إذن نظرية (كل ــ مـن ــ يتكلم ــ يموت) هذه لا تملك براهين كافية .. »

برغم كل شىء هناك شىء من الصواب فى كلامه .. سيدريك لم يخبرنى بما يريد ورئيسة نفسها قالت إنه ليس بوسعه معرفة ما يدور هنا ..

ولكن لماذا ماتوا ؟

ــ « ربما هى الصدفة .... »

قالها باركر وهو يضع يديه فى جيبى بذلته تحت المعطـف ، فأضاف المدير :

ــ « ربما هو وباء ؟.. ربمـا هنـاك خطأ فى الـدواء الذى يتعاطونه .. لو وزعوا عقار (تتراسيكلين) انتهت صلاحيته علـى مرضى مستشفى ، فلسوف تتساقط الرءوس على الفور .... »

ــ « ومن يعرف الإجابة ؟.. »

ــ « سوف ننتظر نتيجة التشريح .. هناك صـديق لـى فـى ياوندى وعد بأن يرسل لى النتيجة بالفاكس .... »

ثم نظر فى ساعته وسمح لى بالانصراف .. يبدو أن لديه كمًّا هائلاً من الأعمال .. لست أنا المشكلة الوحيدة لديه ..

غدًا سوف أبدأ يوم عمل جديدًا بعيـدًا عـن الجذام والأنـوف المجدوعة والأصابع الناقصة .. تصور أننى أشعر بضيق لهـذا !.. إن المخ البشرى عجيـب فى قدرته على التكيـف والتعـود .. لو أرغموك على معانقة غوريلا مليئة بالبراغيث يوميًا لمدة عام ، لشعرت عندما يوقفون ذلك بأنك تفتقدها ..

على أن هذه التجربة علمتنى ألا أخاف مرض الجـذام ، وأن أشعر نحو مرضاه بشفقة لا حدود لها .. إنهم التعاسة مجـسمة .. المريض الذى يشمئز الناس منه ولا يتعاطفون معه .. لعل هـذا أقسى من السرطان ..

عدت لمسكنى الجميل المريح مع (برنادت) ..

تمددت على الأريكة ورحت أرمق السقف .. مثل اللقطات الأولى فى فيلم (سفر الرؤية الآن) رحت أرى خيال مروحة الهليوكوبتر كأنها معلقة فى السقف .. صوت الهدير ما زال يدوى فى أذنى ...

قالت لى برنادت وهى تزيح الستائر ليتسرب الليـل الأفريقـى إلى الداخل ومعه القمر المكتمل :

ــ « هل أعد لك العشاء ؟.. »

ــ « لست راغبًا فيه .. الانفعالات جعلت معدتى تتقلص ... »

دنت منى ووضعت سبابتها على أنفى مداعبة وقالت :

ــ « أنت أحمق ومجنون ومندفع .. لكنك علـى صـواب .. فلا تتراجع .. كالعادة تمارس هوايتك فى محاربة الطواحين على طريقة (دون كيشوت) .. وكالعادة تتلقى ضربات كثيرة جدًّا ... »

هناك مصطلح فى العامية المصرية يعبر عن هذه الحالة بدقة هو (الفاجومى) ، لكنها لن تفهمه برغم إننى شرحته لها من قبل ...

أضافت وهى تنهض :

ــ « سمعت من طفل أو طفلين فى العيادة اليـوم أن المـدير يضرب المرضى فعلاً ... .. »

ــ « هذا رائع .. لدينا شهود آخرون إذن .. لكن بقيـت لـى نقطة واحدة : هو يضربهم .. فهل يقتلهم كذلك ؟!.. »

- 10 -

وهكذا مضت الحياة ...

لو كنا فى فيلم مصرى قديم لرأيت الأوراق تتطاير من على تقويم الحائط ، ولرأيت لقطات بطريقة المزج لى وأنا أفحص المرضى أو أساعد فى الجراحة ، وأودع برنادت صباحًا وهى تذهب لركوب الهليوكوبتر .. أخاف عليها كثيرًا جدًا لسبب بسيط هو أننى أعرف أن الهليوكوبتر لن تسقط بى أبدًا .. أنا وغد محظوظ .. فقط هم الذين تسقط بهم الطائرة ، ومعنى وجودى هنا من دونها أنها فى خطر داهم ..

الفكرة الأخرى هى أنهم أخذوا معهم مجموعة لا بأس بها من الوجوه المهمة .. لهذا أعمل مع وجوه لا أحمل لها عاطفة معينة .. عندما تعمل مع طبيب فنلندى صموت لا تستطيع نطق اسمه بشكل صحيح فضلاً عن تذكره لمدة خمس دقائق ، ولا تكون بينكما ذكريات ولا مواضيع مشتركة من أى نوع ، فأنت تعرف قيمة بسام ..

وبالطبع بدأت أتحول إلى سيدة الدار لأن المدام ــ التى صارت هى سيد البيت ــ تعود مرهقة فى ساعة متأخرة .. لذا أقوم

بتنظيف البيت والطهى بانتظار عودتها . كنا نفعل هذه الأمور معًا عندما كنا نعود معًا مرهقين ، لكن الأمر يختلف اليوم .. هى الأجدر بالرعاية ..

كنت منهمكًا فى غسل الثياب .. أنت تعرف طريقة الرجال فى غسل الثياب ، وإن لم تعرف فلا داعى للوصف .. عندما تلقيت ذلك الاستدعاء لمكتب المدير ..

نظرت للساعة .. السابعة والربع .. هناك خطأ ما ..

بلا تردد أرجعت العقارب لتصير السابعة بالضبط .. الساعات تخطئ لكن قاعدة (علاء ــ السابعة مساء) لا تخطئ أبدًا ..

هكذا ارتديت ثيابى وتركت تلك المذبحة التى كنت غارقًا فيها ، وهرعت إلى مكتب المدير ..

لو قال لى إن الطائرة سقطت ونحن آسفون ونشاركك المصاب الأليم ، لحطمت وجهه .. أعرف هذا يقينًا ..

لكنه كان هادئًا .. يجلس وأمامه أوراق ملفوفة ساخنة مما يدل على أنها خرجت من الفاكس حالاً .. أشار لى كى أجلس ثم ابتسم وناولنى لفافة الأوراق ..

وجدت أرقامًا وتواريخ وتوقيعات .. هذا يثير جنـونى .. لـن أقرأ كل هذا .. قل ما تريد وأرحنى ..

قال وقد خمن ما يدور بذهنى :

ـ « تشريح المـرأة (رئيسة) .. هبـوط حاد فى الـدورة الدموية والتنفسية .. »

هذا ليس تشخيصًا .. من لا يملك خبرة طبية يعتقد دائمًـا أن هذا سبب الوفاة .. فعلاً هو سبب الوفاة النهائى .. كل من يموت يموت بهذا السبب ، لكن ما الذى سبب الهبوط الحاد ؟.. معظم الناس لا يفطنون لهذه النقطة .. أريد عبارة (ناجم عن .... كذا) ..

بالفعل كانت باقى الأسطر تقول :

ـ « ناجم عن تفاعل حساسية شديد . فحص المعـدة يظهـر مادة كيميائية غريبة .. »

لقد قاموا بانتداب خبير سموم أسكتلندى موجود فى ياوندى ، وقد فحص المادة بعناية وتأكد من أنها ليست سمًّا معروفًا .. إنها أقرب لعقار تجريبى اسمه RW1256 .. وهو عقار شبيه بالسلفونات لكنه لم يتلق موافقة إدارة الأغذية والعقاقير FDA ، ولم تنتقـل الأبحاث عليه إلى مرحلة ثانية .. باختصار هو عقار مجهول ...

نظرت للمدير فى حيرة وقلت :

ـ « اسمه RW1256 ؟... وما هو ؟.... »

قال باسمًا وهو يهرش أذنه بإصبع يده الصغير :

ـ « سلفون .. أى إنه عقار جديد لعلاج الجذام .... »

ـ « وهل ما زالت هناك عقاقير جديدة لعلاج الجـذام ؟.. إن المرض لم يظهر مقاومة للعقاقير المعروفة .. »

ـ « بالفعل .. ولهذا توقف البحث فى هذا العقار الجديد ولـم يتلق تمويلاً .. »

رحت أفكر بعض الوقت وأتأمل الأوراق فى غباء .. ثـم فـى فهم .. ثم فى حيرة .. ثم فى بلاهة .. ثم فـى انتـصار .. فـى النهاية قلت :

ـ « الأمر واضح .. هناك من جرب عقارًا جديدًا خطرًا علـى هؤلاء الذين ماتوا .. وهكذا نعرف أنهم ماتوا بأعراض جانبيـة عنيفة للعقار .. »

ـ « جميل .. ومن هو ؟.. »

قلت على الفور :

ـ « ومن سوى ذلك المدير الوغد ؟... (دونو) .. لقد برهن مرارًا على أنه لا يعتبر هؤلاء المرضى بشرًا .. مـن يـضربهم يستطيع أن يسممهم بعقاقير لم تجرب .... »

عاد يبتسم ابتسامة لزجة ساخرة :

ـ « ولماذا يفعل هذا ؟.. (علاء) .. أنت مصمم على تجاهل قاعدة النفعية .. ما الذى يستفيده من هذا ؟.. الرجل بلا طمـوح علمى ولم ينشر أبحاثًا علمية منذ أعوام طويلة ، وهو لا يعمـل مع شركة أدوية .. حتى لو فعل هذا من أجـل شـركة أدويـة فالعينات قليلة لا تخدم أحدًا .. أنا أستبعد (دونو) مـن قائمـة الاتهام بلا تردد .... »

ـ « إذن من يفعل هذا ؟.. »

ـ « ابحث عن شخص يهمه أن يجرب عقارًا جديدًا للجـذام بشكل غير قانونى وغير أخلاقى .... »

رحت أفكر .. بالطبع هو أبراهام ليفى .. لا أحد سواه .. لماذا ؟.. لأننى أكرهه طبعًا ..

ثم فطنت إلى أن كرهى له ليس مبررًا للى عنق الحقـائق .. هو إسرائيلى وهذا كاف .. فلماذا أبحث عن تهمة إضـافية لـه خاصة إذا كان لم يرتكبها ؟

قلت للمدير وأنا أخط كلمات فى مفكرة :

ـ « سوف أعرف من أين بدأ خيط تعاطى هذا العلاج .. أنـا متأكد من أن (سيدريك) تعاطاه وكذلك (رئيسة) .. سـوف تعرف (برنادت) كل شىء .. »

قال لى بلهجة كالتوسل :

ـ « كن حذرًا .... »

ـ « سأحاول .. لكن لا أعد بشىء .. »

الفصل التالى لم يكتبه د . علاء عبد العظيم :

كف علاء عن الذهاب لمستعمرة (سان سيرفيه) ..

كففت أنا كذلك منذ يومين بسبب ارتفاع درجة حرارتى ، وإن عرفت أن هناك شيئًا مريبًا حدث هناك ..

الممرضة الكاميرونية (ماجولا) المسئولة عن توزيع العلاج .. إنها ليست من الطراز الثرثار ويمكن الاعتماد عليهـا بالفعـل . لاحظت أن تلك الطبيبة الكندية (برنادت) تحوم حولها كثيرًا وقد دخلت الصيدلية عدة مرات لتسألها عن أشياء غير مترابطة ..

لقد طلبت من (ماجولا) أن تتخلص من كل ما لـديها مـن العقار .. تلقى به فى البالوعة ..

بالطبع لا يستطيع أحد أن يثبت شيئًا .. لكننى كنت قد وضعت خطة تقضى بتجربته على أربعة مرضى فـى حالـة متقدمـة ، وأربعة مرضى فى بداية المرض تمامًا .. بالطبع لا يجدى العقار مع الحالات التى تشوهت فعلاً ، لكنى كنت أريد معرفـة تـأثيره على هذه الحالات .. ليس هذا عددًا كافيًا لأيـة دراسـة لكنـه يريحنى شخصيًا قبل أن أبدأ تعاطيه بنفسى ..

(ماجولا) تلقت مبلغًا ضخمًا كى تشاركنى فى هذه (الدراسة) .. لكن الضغط على أعصابها كـان شديدًا عنـدما بدأت الـرءوس تتساقط .. ثلاثة مرضى بحالات متقدمة جربنا معهم العقار وفشل هذا فشلاً ذريعًا .. هذا العقار لا يتحمله جسد بشرى ... لم يـنج سوى مريض واحد كأننا نعطيهم الزرنيخ ..

كانت (ماجولا) تمر على المريض وتعطيه العقار مع جرعات الفيتامين التى يتناولها من وقت لآخر .. وقد اخترت (رئيسة) لأنها أول مريض عرفته هنا ..

لقد أغلقت هذا الباب وتخلصت من آثارى كلها فلن يعرف أحد ما حدث ...

ثم بدأت د . برنادت تحوم حولها .. أصيبت الممرضة بالتوتر وكادت تنزلق أكثر من مرة ، لكنى أكدت لها أنه ما مـن خـوف عليها على الإطلاق .. من يستطيع إثبات أى شىء ؟

هنا أتت الرياح بما لا تشتهى السفن ..

المريض الرابع ظل حيًا .. فلماذا ظل حيًا ؟.. لأنه لم يتعـاط أقراص العقار الجديد وكان يحتفظ بها تحت وسادته .. لقد شـك فيها وشك فى هذا التغير فى قائمة الأدوية ..

عندما بدأ الكل يتكلم عن عقار مؤذ أودى بحياة ثلاثة ، ظهـر هذا الرجل ..

توجه بخطواته العرجاء وعينه غير المبصرة إلى مكتب المدير ، وهناك قدم له الأقراص وأكد أن (مـاجولا) الممرضـة كانت تعطيه هذا العلاج ضمن الفيتامينات التى يأخذها .. وبمعدل ثلاثة أقراص يوميًا ..

هكذا انفتحت أبواب الجحيم ، وسرعان ما وجدت (مـاجولا) لجنة من الأطباء تفتش الصيدلية .. وتفحص كل شىء .. الأهـم أنهم فحصوا ملامح وجهها ونظرات عينيها .. عندها عرفوا أنها هى ...

تم استدعاؤها لمكتب المدير .. هو رجل وغد وغير نظيـف ، لكنه سوف يحسن استغلال هـذا الموضوع .. ما دام لا يمـسه ولا يقلل من أرباحه فلسوف يكون قاسيًا صارمًا ولسوف يظهـر للجميع مدى حرصه على صحة مرضاه ..

قالت الممرضة وهى تبكى وتمخط إن هناك طبيبًا من خـارج الوحدة أعطاها هذه الأقراص وحدد لها أسماء أربعة مرضـى .. وبالطبع لابد من مبلغ مالى محترم ..

ــ « ومن هو ؟.. »

ــ « لا أعرف اسمه .. إنه من هؤلاء الأطباء الذين يأتون من (أنجاوانديرى) يوميًا .... »

فتح المدير الدرج وراح يعرض عليها صور الأطباء الضيوف الموجودة فى ملفاته ..

ــ « هذا ؟.. »

ــ « لا .... »

ــ « وهذا ؟.. »

ــ « لا .... »

ثم انفجرت فى البكاء ..

لا ذنب لى .. هناك طبيب أمرنى بشىء وقد نفذته ..

لكن المدير ظل مصرًا على أن يعرض عليها الوجوه .. أقر لهـا بالشجاعة فى هذه النقطة ، فقد أصرت على أنها لم تعرفنـى .. يمكن أن يكون هذا صادقًا (الصورة ذات ملامح مختلفة) أو هى ثابتة فعلاً .. هكذا أعادوها لعملها ، وإن ظلوا يستدعونها مرتين

يوميًّا بغرض تحطيم أعصابها .. لم يتخذ المدير أى إجراء رسمى قبل أن يعرف المحرض ...

أشعر بالقلق فعلاً ...

إن فكرة أن يظل مصيرك معلقًا بأعصاب ممرضة كاميرونية لأمر مقلق .. لكن ماذا بوسعى عمله ؟

أعتقد أن على تقليل مرات ذهابى إلى هناك ...

لا أريد أن تلتقى عيناى بها أو أن يتذكر أحد أننى كنت أكلمها ..

- 11 -

فى غرفة المدير (بارتلييه) اجتمعنا ..

كانت العاشرة مساء لأنه انتظر حتى عاد كل من أرسلهم للمستعمرة .. كان هناك كثيرون يحبون النوم المبكر ، لذا كانوا متذمرين فعلاً .. الغرفة كذلك ضيقة بحيث لا تعرف أبدًا لماذا لم يعقدوا هذه الجلسة فى (الأوديتوريام) . يمكن القول فعليًّا إن الكل يجلس فوق الكل ..

على الأرض جلست جوار (برنادت) و(بسام) .. أما شيلبى فقد اختار لنفسه كالعادة أفضل مقعد جوار المدير .

قال لنا المدير بعد ما رحب بنا بلهجة سريعة عملية :

ـ « سوف أقول بضع كلمات بعدها يمكنكم العودة لغرفكم .. أعرف أنكم مرهقون .. طلبت من السكرتيرة أن تقدم قهوة ساخنة للجميع .. »

قال روشكوف الأستاذ الروسى :

ـ « نحن لم نجد الفرصة لنغتسل من غبار المستعمرة .. أتمنى أن نكون حاملين للعدوى وأن نصاب بالجذام .. »

قال شيلبى ضاحكًا وهو يشعل سيجاره الغليظ :

ــ « أنت خير من يعرف أن العدوى تحتاج لفترة طويلة مـن المخالطة .... »

هنا صاح ليفى فى نفاد صبر :

ــ « هلا بدأنا ؟.. »

قال بارتلييه وهو يقلب أوراقه :

ــ « سـوف يشرح لكم د . عـلاء عبـد العظيم ملابسات الموقف !.. »

شعرت بحرج عظيم .. لماذا أنا بالذات ؟..

ثم إن الموقف بدا لى سخيفًا .. كنت أكره دومًا الفصل الأخير فى القصص البوليسية حيث يجتمع المشتبه فيهم جميعًا ، ويقف مخبـر ذكى (فلحـوس) ــ آسف للتعبير ــ يذكر كيف بحـث وماذا وجـد ، ثم فى النهـاية يشير إلى أحد الجالسين : إنه أنت يا (آرثر) .. أنت من دس السم للورد (ثاكرى) !

هنـا يخـرج آرثر مسدسًا فى نفس اللحظة التى تهوى فيـه عصا المخبر على يده لتسقط المسدس . يبدو أننى سألعب هـذا الدور ..

نهضت لأقف واستندت إلى الباب الموصد ، ودست يدى فـى جيبى لأبدو واثقًا متحديًا .. وقلت :

ــ « مسـاء الخيـر .. أ .. أكـره أن أقـول هـذا .. لكـن اعترافات الممرضـة (ماجولا) كما عرفت من د . (برنادت) تقول إن هناك واحـدًا مـن الجالسين فى هـذه الغرفة أعطاها عقارًا جديدًا .. عقارًا تجريبيًا اسـمه RW1256 لتجربـه علـى مرضى الجـذام . وهـذا العقـار قد سبب كارثة حقيقية وقتـل ثلاثـة بؤسـاء .. تقول إنه مـن الأطبـاء الذين يأتـون مـن أنجاوانديرى .. »

قال ليفى فى ضيق :

ــ « ومن هو ؟... معرفة الشخص سهلة .. »

لم أنظر نحوه وواصلت كلامى

ـ « لم يتم عرض الأطباء على الممرضة وإنما عرضت صورهم عليها ، وقد قالت إنها لم تتعرف الطبيب بين هؤلاء .. أمامنا ثلاثة احتمالات .... .. »

قال آرثر شيلبى فى ثقة :

ـ « إما أنها بلهاء .... »

ابتسمت وقلت :

ـ « هذا احتمال رابع لكنى أشك فيه .. الاحتمال الأول أنها صلبة قوية تخفى شريكها .. وبهذا تكون نوع الشريك الذى أتمنى أن يكون معى عندما أرتكب جريمتى الأولى .. الاحتمال الثانى هو أن الصور لم تكن كاملة .. هناك صورة أو صورتان ناقصتان .. الاحتمال الثالث هو أن ملامح الشخص فى الصورة تختلف نوعًا عن ملامحه فى الحقيقة .. كلنا مر بهذا الموقف ، وأذكر فى امتحانات المدرسة أنهم كادوا يطردوننى من اللجنة لأن صورتى لا تشبهنى على الإطلاق .. هذا جعلنى أعيد تفحص الصور التى أرسلت للمستعمرة .. وهكذا أمكننى تحديد ثلاثة أشخاص تختلف صورهم عن حقيقتهم .... »

هنا صاح ليفى فى عصبية :

ـ « ومن كلفك بأن تكون رئيس لجنة التحقيق ؟.. من طلب منك لعب دور (بوارو) ؟.. »

قلت بلا مبالاة :

ـ « أنت يا دكتور ليفى من ضمن هؤلاء الثلاثة .. لكن أجيب عن سؤالك أولاً : المدير .. بروفسور (بارتلييه) كلفنى بهذا وثق أننى لم أحب قط ما أقوم به .. »

هنا دق الباب فتنحيت .. دخلت السكرتيرة ممتقعة الوجه ونظرت لنا فى حيرة .. كانت تحمل صينية عليها أكواب ورقية عديدة مليئة بالقهوة الساخنة التى ينبعث الدخان منها .. مشت فى ارتباك إلى المكتب لتضع الصينية ، لكنها تعثرت فى قدم (بسام) الجالس على الأرض فسكبت كمية من القهوة الساخنة على المكتب .. أخرج الجالسون مناديل ورقية وراحوا ينظفون السائل بينما هى تعتذر بلا توقف ..

واصلت الكلام برغم وجودها فقلت :

ـ « هناك سؤال لم يجب عنه أحد .. لماذا يمارس أحد هذه التجربة العجيبة ؟.. إنها تتم خلسة وغير مراقبة وغير مقننة علميًا ، ولم تخضع لرقابة ، وتتم على عدد محدود جدًا من

المرضى .. هذه دراسة لا تصلح للنشر ولا لبناء أية نتائج عليها .. هنا برز لنا الاحتمال المروع : واحد من الجالسين هنـا أصـيب بالجذام وهو يريد أن يجرب هذا العقار الجديد ليرى إن كان أكثر فعالية .. لقد جربه على مرضى المستعمرة بنفس الطريقة التـى يضع بها أحدهم قطرات من طعامه للقط ليرى إن كان سيتسمم أم لا .... »

تبادلوا النظرات .. وأدركت أننى نجحت فى أن أشد انتباههم .. هؤلاء الأوغاد !

واصلت كلامى وقد ازددت ثقة :

ـ « نحن نعرف أن الجذام يحتاج لوقت طويل من الحـضانة قبل أن يظهر .. هذا تلقائيًا يستبعد المجموعـة الجديـدة مـن الأطباء مثلى وزوجتى وبسام .. ويـستبعدك أنـت يـا دكتـور (ليفى) .... إلخ .. هذا يتركنا مع الحرس القديم إن سمحتم لى بهذه التسمية .. يبقى لنا اسمان .. »

هنا رفعت عينى لأجد أننى أصطدم بنظرات شيلبى الناريـة .. قال لى فى كبرياء وقسوة :

ـ « هل تتهمنى بشىء أيها الشاب ؟.. »

تراجعت فى حدتى قليلاً وقلت :

ـ « الحقيقة أن كل العوامل تنطبق عليك يا دكتور شـيلبى .. أنت متهم ممتاز ... لكن هناك نقطة لا بد من ذكرها .. العقـار التجريبى RW1256 هو عقار روسى .. ولا يمكن الحصول عليه إلا من المختبرات الروسية .. فى البدء تحمسوا له جدًا وقـالوا إنه قادر وحده على شفاء الجذام ، ثم أدركوا أنه خطر ولا قيمة له .... »

ثم نظـرت نحـو د. روشـكوف الذى كان يجفـف القهـوة المسكوبة بمنديل ورقى ، وقلت :

ـ « أكره الخروج عن الموضوع .. لكن ألاحـظ يـا دكتـور (روشكوف) إن القهوة الساخنة انسكبت كلها تقريبًا على يدك ، فلماذا لم تبد ألمًا أو تصرخ ؟؟.. »

الفصل التالى لم يكتبه د . علاء عبد العظيم :

لا بأس ..

أشعر براحة لأن السر قد افتضح ولم يعد هناك شىء أخفيه ..

سوف أتلقى العلاج المناسب ضد الجذام ، لكن الحساب سيكون عسيرًا بالتأكيد على ما اقترفت ..

لا يهم ..

كاد أمرى ينكشف قبل ذلك ، عندما شك ذلك المريض العجوز (سيدريك) فيما يتعاطاه ، وقد راح يلاحق كل طبيب متقدم فى العمر ليطلب رأيه .. لاحق شيلبى كثيرًا ولاحقنى .. ولحسن الحظ أنه مات قبل أن يحكى قصته المسلية عن الأقراص الغامضة ...

(رئيسة) كانت بقرة مسالمة تأخذ ما يعطى لها ولا تناقش .. أعتقد أنها أكثر من أحببت بين مرضى هذه المستعمرة ..

الآن سوف تعرف لارا الحسناء أننى مجذوم .. وأننى قاتل معدوم الضمير ..

سوف تعرف زوجتى كذلك الكثير عنى ..

لقد قضى على الجذام مرة ، ثم ذلك الشاب المصرى مرة أخرى .. والغريب أنه أهدانى كعكة لعيد ميلادى !... لم أتصور وأنا آخذ الكعكة أن نهايتى ستكون على يد هذا الشاب المهذب ...

عندما عرفت بحقيقة مرضى ، ومع فقدانى الإيمان بالعقاقير التقليدية ، اتصلت بالبروفسور (ميخائيل فتشننكو) فى موسكو وطلبت أن يرسل لى بعض هذا العقار .. قال لى إنهم لم يجربوه بما يكفى لكننى كنت مصرًّا .. هكذا أرسل لى علاجًا يكفى عشرين شخصًا لمدة ستة أشهر ...

إنه يعرف الآن أنه عقار خطر وإن عليهم أن ينسوه ..

★ ★ ★

بالنسبة لمدير المصحة البلجيكى الوغد (دونو) لن تكون الأيام القادمة باسمة ، ما لم يكن قد أحسن إخفاء آثار اختلاسه .. هناك لجنة محاسبين من ياوندى جاءت لتدقق فى دفاتره وتبحث عن كل مسمار تلقى ثمنه ولم يشتره .. لو تشجع المرضى وتكلموا لحكوا عن سوء معاملتهم له ...

إن أيامًا عصيبة تنتظره ما لم يكن قد أخفى معالم جريمته جيدًا ، وأنا أشك فى أنه قد فعل ..

ماذا سيحدث له ؟

هل تغلق السلطات الكاميرونية المستعمرة عندما تدرك حجم الفساد فيها ؟

هذه أسئلة لا تعنينا هنا فى (سافارى) .

د. جريجورى روشكوف

أنجاوانديرى

روايات مصرية للجيب

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
كي يظل حيًا وكي يظل طبيبًا



د. أحمد خالد توفيق

داء الأسد

يمكنني سماع صوت الأجراس .. هل تسمعها معي؟

ترن ترن ترن ..

إنهم المجذومون يمشون في شوارع مدن القرون الوسطى الأوروبية .. على كل مجذوم أن يحمل جرسًا ينذر به الناس .. عندها يرتجف الأطفال خوفًا ، وتهرع ربات البيوت يضعن على الأبواب أرغفة الخبز وآنية الماء ، ثم يغلقن الأبواب ، لأن موكب المشئومين قادم ..

يشعلون النار .. وينتظرون وهم يرتجفون خوفًا ..

أنا من بينهم .. لا يمكنك أن ترى وجهي ؛ لأنه مغطى بعباءة .. لكنك ترى لمحات معينة تملأ نفسك ذعرًا ..

العدد القادم

الشمس الأرجوانية

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن في مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم